دول إسلامية في إفريقية

دراسة وتطبيق

للأستاذ : عبده بدوي



العدد الرابع والأربعون

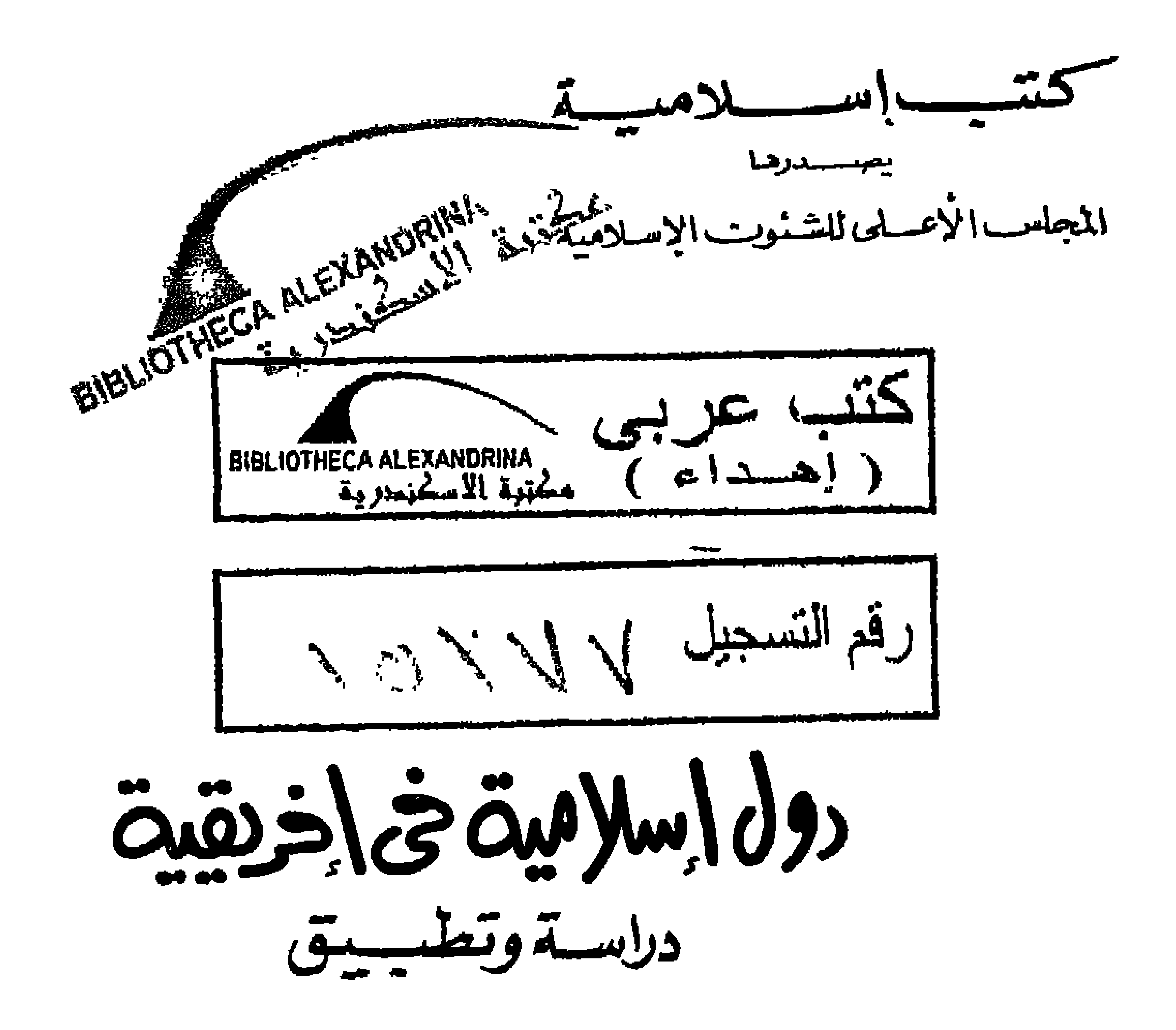
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة

اهداءات ٢٠٠١
ا.د. محمـــود ديـــاب
جراح بالمستشفى الملكي المصري

كتب إسلامية

يصدرها

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية



دول إسلامية في إفريقية

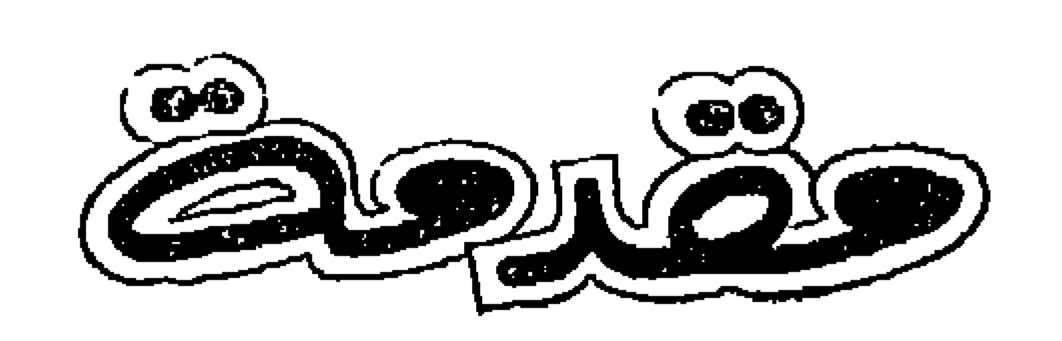
دراسة وتطبيق

للأستاذ : عبده بدوي

« ٤٤ »
السنة الرابعة
١٥ من ذى القعدة ١٣٨٤ هـ
١٧ من مارس ١٩٦٥ م

يشرف على إصدارها :
محمد توفيق عويضة





فى العدد ٢٩ من هذه الكتب قدمت كتابا بعنوان « دول اسلامية فى الشمال الافريقى » وذكرت فيه ان الشمال لم يكن منعزلا عن العالم العربى سياسيا وفكريا ، وان الدول فيه كانت تقوم على أساس « المرتكزات الفكرية »التى كانت تتمثل فى عدة أشكال هى : الاسلام السنى ، ووجهة النظر الشيعية ، ووجهة نظر الخوارج •

ومن خلال هذه الأفكار الاسلامية قدمت الدول التى كانت تمثل وجهات نظرها ، فقد كانت جميعا « دولا دينية » تقوم على حقائق نابعة من الدين فى الأصل ، وعلى المكونات الأخرى فى الفرع •

ولكننى ماكدت أبعد « سن القلم » عن هذه الفكرة ، حتى اطلت على الدول الأخرى بوجوهها الأشد سمرة ، والتى استطاعت أن توسع دائرة الاسلام فى أفريقية •

ومع أن « الأطارات » الثلاثة السابقة لم تكن واضحة كل الوضوح بحيث يمكن القول ، وتمكن الاشارة فى الوقت نفسه الى أن هذه الدولة سنية ، وهذه شيعية ، وهذه تنتمى الى

الخوارج .. الا أن جوهر الاسلام كان واضحا فى « المعمار » الذى تقوم عليه هذه الدول .

وقد يرد سؤال يقول :

« ما فائدة الحديث عن هذه الدول الآن ، وقد تآكلت ولم تعد الا ذكرى ؟ » .

ولكنا لانريد بهذه الدول الا توضيح « المسار » الذى سار فيه الاسلام ، والى قياس الأمواج الاسلامية الكبيرة ، ومحاولة معرفة ماإذا كان يمكن أن تواصل الرحلة ، حتى تغطى كافة الشطآن فى القارة ؟

صحيح أن الاسلام أصبح دين « ثبات » فى آسيا ، ودين « جمود » فى أوربا .. ولكنه فى افريقية دين « حركة » الى حد القول بان افريقية هى قارة الغد بالنسبة للاسلام

وهم حين يقولون هذا يتكئون على تلك الاحصائية التى تقول « ان الاسلام ضاعف نفسه خلال العشرين سنة السابقة »

وينظرون كذلك الى تلك الخريطة التى تؤكد احاطة الاسلام بالقارة احاطة تكاد تكون حاسمة من الشمال والشرق والغرب ، والتى تكون فى انتشارها مايشبه الهلال ، بحيث يذكر الناظر الى هذه الخريطة ــ على حد تعبير هو بيرديشان ــ رمز الاسلام نفسه

كما يذكرون الترحيب الذى يقابل به الاسلام بين الشعوب الأفريقية ، ويذكرون الاستحالة التى قابلت المبشرين فى محاولة تحويل المسلمين الى المسيحية ، ويؤكدون أن ما كسبه التبشير كان بمساندة الاستعمار ، وبمحاولة ربط التعليم والعلاج به ،وانه بانحسار الاستعمار ، وباشراف الدول على التعليم والعلاج ، أصبحت الرقعة أضيق مما يتصور أمام المبشرين .

أما الاسلام فهو بشهادة المبشرين أنفسهم يستهوى الرجل الافريقى ، الى حد أن « ديديرنج وسترمان » يذكر أن مايستهويهم من الاسلام أنه « دين ذو رجولة ! »

وقد حاول البعض أن يربط بين ظاهرة الانتشار الاسلامى والسماح بالتزوج من أكثر من واحدة ، ولكن يرد عليه ان المسيحية في بعض المناطق فى افريقية سمحت بهذا ، بل لم تقف بالعدد عند أربع ، ومع هذا فلم يتحقق ما تريده !

ومهما يكن من شيء فان عملية التقدم المستمر ترد على هؤلاء الذين حاولوا أن يضعوا على الاسلام « بطاقة » تقول انه دين محلى ، وانه دين السيف ٠

وانه دين الصحراء فى الأصل ، والسهول فى الفرع ، وأنه من الاجهادبحيث لا يستطيع التسلق بالمرتفعات فى أى مكان توجد فيه هذه المرتفعات ٠٠ ناهيك عن مناطق « السفانا » و « الغابة »٠

واخيرا فانهم يقولون ان « الفرسان الأسيويين » الذين استطاعوا نسج الاسلام فى الشرق قد انقرضوا أو كادوا ، وأنه هناك عملية تصفية واسعة لهم فى اكثر من منطقة بالشرق ٠

ونحن نجد الحقائق تعارض كل هذه الدعاوى ، فنحن نجد الاسلام فى أفريقية قداكتسح السهل ، وتعلق بالمرتفعات ، صحيح أن تغطيته للصحراء والسهول كانت جارفة ، ولكن هذا يرجع الى تلك القبائل البدوية التى كانت تغطى هذه المناطق ، والتى تمثل مثلا فى الشرق البجة ، والدناقلة ، والصوماليين ، والمهاجرين القدماء من الأسيويين ٠

وفى الوقت نفسه ترى الاسلام يتعلق بالمرتفعات فى اثيوبيا ، وقد مر بنا تعلقه بمرتفعات أطلس بالمغرب ، ولكن عدم اكتساحه لهذه المرتفعات تبرره ظروف خارجية تتعلق بسياسة الحكومة الرسمية التى لم تشأ أن تلقى بظلها فى هذه المنطقة ٠

ثم تتعلق بعد ذلك بقدوم البرتغاليين الذين شنوها حربا صليبية بعد أن رأوا المسلمين ينكسرون في الأندلس ، ويذبلون في المغرب ، ويتطاحنون في بعض دول الشرق ، كما تتعلق كذلك بالصدور التي فتحت لهم من الاحباش ٠

وبالاضافة الى هذا كان ما يذكر « الحكومة الرسمية ٠٠٠ بالمسلمين بهذه المنطقة هو محاولة الضغط على أعدائهم باعتبارها « مهجرا » يحمي الخارجين على الدولة ، أو محاولة جبي الضرائب منهم ٠

كما أن القوى العربية في هذه المنطقة كانت تمثل «بورجوازية تجارية » يعنيها أول ما يعنيها جمع المال ، وعدم الدخول في منازعات ٠

أنها لم تكن تتجمع تحت شعار الاسلام ، قدر ما تتجمع حول شعارات هامشية متضادة تتمثل في السنية ، والزيدية ، والأباضية ٠

وفي ضوء هذا رأينا الوجه الصومالي ، والزنجباري مسلما تماما ، أما الحبشة وكينيا ، وتنجانيقا ، وكذلك أوغندا في الداخل فلم تحتفظ الا ببعض الملامح الاسلامية ، ذلك لأن القوى المسيحية في المنطقة استندت على القوى المسلحة البرتغالية ، أما القوى المسلمة فقد استندت استنادا عاطفيا على مصر وتركيا ٠

صحيح أن هذه المنطقة عرفت قادة مكافحين على رأس تجمعات كبيرة مثل « محمد أبو عبد الله » و « أحمد بن ابراهيم »و «سعد الدين ونور بن الوزير »، كما عرفت القوى العمانية التي وجهت ضربات حاسمة الى البرتغاليين في المنطقة ٠٠ الا أن هذا كان في وقت متأخر تبعه بعد ذلك التغلغل الأوربي ٠

ومع هذا فمن المقرر أن الاسلام لم يتنشر تماما حين شهر السيف ، ولكن حين رفرف السلام على المنطقة أخذ الاسلام يمد اجنحته على الشرق .

ثم يتغلغل بهذه الأجنحة الى الداخل بحيث أصبح حقيقة مقررة تصل ما بين موزمبيق وسفاله ، ونياسالاند ، وهضبة البحيرات وأوغنده ، وكينيا ، والكونغو ، بالاضافة الى تنجانيقا ، وهكذا كانت المساجد تلف هذه المناطق فى القرن الثامن عشر .

وقد كان هذا بفضل التجار ، والطرق الصوفية ، والقوى العمانية ، والمصرية ، والتركية ، كان هذا بعد أن كانت السيوف قد أغمدت ، وأخذ السلام يرفرف على المنطقة .

بحيث أصبح مما لاشك فيه أن الاسلام قد انتشر بالسلام ، أكثر مما انتشر بالمعارك المتلاحمة خلال أربعة قرون ، لفت المنطقة بغبارها وتوترها ، بالصراع الذى لم يكن يهدأ الا ليثور من جديد .

وقد كانت نتيجة هذه المعارك اندحار البرتغاليين الذين كانوا يريدون الاستيلاء على منطقة الشرق ، وعلى ضرب مصر عن طريق السويس .

وكان من نتيجتها سقوط الحلف الذى كان معقودا بين البرتغاليين والأحباش ، بعد أن تأكد الأحباش أن البرتغاليين كانوا ينوون التهامهم كذلك داخل منطقة الشرق .

كما كان من نتيجته سقوط الحلف الاسلامى بزعامة «أوفات» وتدمير ما اصطلح على تسميته « بدول مدن أفريقية » وانحسار المسلمين عن مناطق كبيرة من الحبشة ، بعد ان كانوا فى عهد «أحمدبن ابراهيم» قد استولوا على جنوبها ووسطها . ثم اخيرا كان من نتيجة توقف هذه الحروب انتشار الاسلام ، بعد أن كان قد توقف فى فترة « حمل السلاح » ولغل

خير ما يؤكد هذا فى منطقة الشرق قول « سيرتوماس » · و · أرنولد » فى كتابه « الدعوة الى الاسلام » من أن القول بان الاسلام قد تقدم بالسلاح أمر ليس فيه الا القليل جدا من الحقيقة ، بل ان الأمر على عكس ذلك تماما ،لأن الاسلام قد لاقى الانتشار السريع بعد ان انتزع الأوربيون السلاح من ايدى المسلمين ، وبعد أن كان قد لاقى الاخفاق فى فترة حمل السلاح

ـ ٢ ـ

واذا كان الاسلام فى الشرق يرجع فى ملامحه الحقيقية الى الى التقدم العربى من « الجزيرة العربية » فان الاسلام فى غرب القارة يرجع الفضل فى نسيجه الى تلك الخيوط المتشابكة التى قام بها المسلمون فى الشمال الافريقى ، بعد أن توقفت أو كادت ، عملية الامتداد « العربى الرسمى » عن الشمال

ذلك لأنا وجدنا دول الشمال تنفسح أمامها الرقعة الافريقية ، ووجدنا فيها هذا الطموح الذى يولده الاسلام ــ بعد ان أخذت به الى فتح منافذ جديدة فى الجنوب ، ومن ثم كان الوجه الرسمى لتقدم الاسلام فى افريقية ·

الا أن هذا الوجه الرسمى كان يكسب الأرض ولا يكسب القلب ، وكان يمد الحدود دون أن يجد السبيل الى النفس الانسانية ·

ولكن هذه الدائرة الكبيرة السياسية ، مكنت القوى التى استطاعت أن تزرع الإسلام فى النفس ، وأن تلف منطقة الغرب بحدود غير منظورة من المآذن التى كانت تنتشر هنا ك ·

وهى تلك الحدود التى تحدث عنها ·· سيرتوماس · و أرنولد» بانه يندر وجود مدينة من مصب السنغال الى لاجوس لاتوجد فيها

مئذنة ، كما أنها تلقى الضوء أيضا على عدم وقوف الاسلام عند مناطق « السغانا » ، وانما التجاوز الى « الغابة » كذلك ·

·· وعلى كل ففى هذه الدائرة الكبيرة لعبت الطرق الصوفية ، وفى مقدمتها القادرية والتجانية والادريسية دورا كبيرا فى اجتذاب القلوب الى الاسلام ·

ولم يكن هؤلاء المتصوفة ـ كما ينصرف الى الذهن عادة ـ طائفة متدروشة متواكلة ، لايهمها الا « المظهر » الاسلامى فقط ، وانما كانوا طائفة من « المثقفين الدينيين » الذين يأخذون انفسهم بجوهر الاسلام ، ويعتقدون بأنه دين حركة لاثبات ، وأنه نظرية متكاملة للحياة ، وأن أهم مافى هذه النظرية الدعوة الى التفوق ·· تفوق الانسان على نفسه ، وتفوق الجماعة على ما يجاورها من الجماعات ·

صحيح أن بعض الآخذين بهذه الطرق قد بالغوا ، وحرفوا ، وانجذبوا ، ولكن « النواة » الأصلية ظلت دائما سليمة ·

ثم ان هؤلاء كان لهم وجه آخر هو « الفروسية » ، وقد كان هذا الوجه يظهر حينما تتصدع بعض الجبهات ، أو تنهار بعض الحصون الاسلامية ·

وقد استطاعوا بسلوكهم وظروف المجتمع من حولهم أن يغطوا رقعة كبيرة من هذه المنطقة باسم الاسلام ·

ثم لقد كان هذا النفر الذى اصطلح على تسميته « بالدعاة » والذى كان متطورا بعض الشىء عن الطرق الصوفية ، والذى يمكن أن يقابلنا من وجه « عبد الله بن ياسين » الذى يمكن اعتباره من رجال التربية فى الاسلام ·

ذلك لانه لم يكن يؤمن بالتشكيل القديم للمسلم فى عصره ، وانما كان يؤمن بتشكيل جديد داخل وجهة نظر جديدة

ومن هنا نراه يطلب من «مريديه» الدخول من جديد الى الاسلام رغم اسلامهم ، ثم نراه يطبق عليهم القوانين الاسلامية تطبيقا حادا ، فاذا ما تشبعت نفوسهم بهذا الوضع الجديد ٠٠ نراه يدخلهم فى مراحل الدعوة الايجابية ، ويطلعهم على حقيقة الرسالة التى يلقيها العصر على كاهلهم ٠

ولقد تم له خلق الف مواطن افريقى على هذه الصورة الجديدة التى أرادها منهم ، وحين استوثق منهم جمعهم ثم قال لهم :

« ٠٠ أخرجوا على بركة الله تعالى ، وأنذروا قومكم وخوفوهم عقاب الله ، وأبلغوهم حجته ، فان تابوا وأنابوا ورجعوا الى الحق وأطاعوا ٠٠ فخلوا سبيلهم ٠

وان أبوا وتمادوا فى غيهم ولجوا فى طغيانهم ٠٠ استعنا بالله عليهم ٠

ولقد وصل تأثيره عليهم الى الحد الذى جعلهم يقولون له :

« ٠٠ أيها الشيخ المبارك مرنا بما شئت تجدنا سامعين طائعين ولو أمرتنا بقتل آبائنا فعلنا »

ولقد كانت هذه الطائفة تتشكل أكثر ماتتشكل من هؤلاء الذين تزودوا بالعلم فى أكثر من مكان ، والذين حملتهم أقدامهم وقلوبهم الى مكة ، أو القاهرة ، أو دول الشمال الافريقى ٠

ففى هذه المدن كانت تشحن نفوسهم ، وكانوا يرون أنه لابد من تحريك الركود فى الغرب الافريقى باسم الاسلام ، ولقد كان مما يساعدهم على المكاسب السريعة أنهم من أهل البلاد الأصليين ، الذين تمكن الاسلام من قلوبهم ٠

وفى هذا المكان لايمكن أن ننسى « التجار »

ذلك لان هؤلاء التجار ، كانوا يمثلون « العصب الاقتصادى » لهذه المناطق ، ولم يكونوا من التكالب على المال بحيث يستطيعون الانصراف عن الذين من حولهم ٠

ومن ثم نرى أن هذه الطائفة بسلوكها الدينى كانت تجـذب الناس اليها •

وأن هؤلاء التجار كما كان يعنيهم كسب المال ، كان يعنيهم كسب القلوب للاسلام •

ومن ثم نراهم يبيعون السلعة ، ويهدون « الكلمة الطيبة » وان هذه الكلمة الطيبة لم تكن تدور الا حول الاسـلام •

وكل الذين كتبوا عن الاسلام لم يغفلوا عن هذا الدور •• وقد يصل بعضهم حين يصل الى حقيقة هذا الانتشـار السلمى البسيط •• الى أن يذكر أن الاسلام لم يكسب أرضا هنـاك الا لأنه يمت بصلة الى عقائدهم ، ثم يذكر أن « القرآن » حل محل « الوثن »، وأن •• صلاة الاستسقاء ، تشبه « صلاة المطر الافريقية » ، كمـا يذكر أن هناكِ تشابها فى الختان ، وفى المهر ، وفى تحريم بعض الأطعمة ، وفى نظام « الأخوة » التى تأخذ بها الصوفيـة ، وفى البر بالموتى وتقديم « الرحمة » لهم •

بل انهم لايعدمون شبها بين « الذكر الاسلامى » و « الرقص الافريقى »

وكل هذا يذكر كمحاولة لتبرير انتشار الاسلام ، وانحسـار المسيحية رغم الظروف الحسنة التى تهيأت لها الا أن مما يشك فيه كذلك أن المسيحية بطقوسها ، وترانيمها الدينية ، وبالتثليث تعتبر أقرب الى العقيدة الوثنية ، وأنه فى ضوء ماقالوه عن الاسلام كان يمكن لها ان تكتسح فى أفريقية •

على أن أحدا لاينكر تلك « الوحدة » التى حققها الاسلام للقبائل، وكيف أنه أحدث نوعا من الرخاء بسبب التجارة وفتح الأسواق ، ولقد اهتم فى كل مكان حل فيه بالقـراءة والكتابة والنظافة

النفسية والجسمية ، كما أنه أبطل شرب الخمر ، وأكل لحم البشر ، والأخذ بالثأر .. بالاضافة الى أنه دعا الى احترام الذات واحترام الحياة ، وحقق نوعا من الانسجام بين الانسان ونفسه ، وبينه وبين مجتمعه ، وبين المجتمع والعالم كله ، ومن هنا اعطى الافريقى الاحساس بالكرامة ، وانه مسئول عن العالم .

من هذا نرى أن الاسلام كان حضارة انسانية حققت للافريقى السعادة وتحقيق الذات . ونراه لم يقف عند الصحراء ، وانما تعداها الى اقاليم الاشجار القصيرة ، وفى الوقت نفسه طرق الغابة ، وجعل له من المناطق الساحلية عدة مرتكزات .

فهو لم يقف عند كسر .. الصحراء الكبرى .. وانما تعداها الى اقامة عشر دول اسلامية خلف هذه الصحراء قبل أن تكون لأوربا أية أهمية فى الوجود .

واذا كان الاسلام قد قام بدور حاسم فى الشمال والشرق والغرب ، فانه لم يستطع أن يقوم بدور فعال فى جنوب افريقية ، لقد كان الوجه الحاسم للشمال والشرق هو الوجه العربى ، وكان الوجه الحاسم فى الغرب هو وجه الافريقيين أنفسهم ، ولكن فى جنوب افريقية بدا وجه الاسلام مترددا ذلك لأن حركته لم تنشط من داخل البلاد ، وانما حمل حملا من العمال المسلمين الذين كانوا يستقدمون من جزر الهند الشرقية ، والذين يعرفون باسم «الملايا»

ومع أن عددا وفيرا من الهنود المسلمين قد دخلوا الى البلاد ، وعلى أنهم جميعا استطاعوا ادخال الاسلام الى عدد من «الهوتنتوت» .. الا أنهم لم يستطيعوا أن يكسبوا للاسلام أرضا كبيرة فى هذه البلاد .

ذلك لأنهم كانوا يمثلون طائفة من العمال المجهدين الذين تضغط عليهم الحياة .

ولأنهم شغلوا بعد ذلك بأسباب الرزق في صورة تكاد تكون مهلكة ٠

ثم لأنهم أخيرا وجدوا أنفسهم داخل دائرة أكبر وهى دائرة الهنود ، وأن الهنود شغلوا هناك بحركة « اللاعنف » التى ادت بالجميع الى السلبية ، وتجميد الأوضاع ٠

لقد عرفوا هناك بالمقاومة ، فحين أريد تنفيذ ما اصطلح عليه باسم « القانون الأسود » وجدنا الزعيم « أحمد محمد كاتشاليا » يقول فى المؤتمرين :

« أقسم باسم الله أنى أوثر الموت على أعواد المشنقة على الخضوع لهذا القانون ، والذى أرجوه أن يكون هذا هو موقف كل من الحاضرين أيضا »

ولقد شهد لهم غاندى فى المزرعة الكبيرة التى أطلق عليها اسم « مزرعة تولستوى » بالسلوك الحسن ، واحترام الأديان الأخرى ٠

ولكنهم عاشوا أقلية لاترغب فى الاصطدام ، كما أن فكرة « اللاعنف » قد شلت قواهم ، وجعلتهم يقنعون بعالمهم الخاص

ومايريده الاسلام اليوم لايخرج عن « الكلمة » فى ظل الآية التى تقول « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن »

ان « المبشرين المسيحيين » اذا كانوا فى غالب أمرهم « الطليعة » التى مهدت للاستعمار واستندت اليه فان « الكلمة » هى التى تجب أن تمهد الطريق للاسلام ٠

ولعل مما يسهل هذه المهمة أن « رجال الدين المسلمين » الذين يقابلون المبشرين المسيحيين لم يثبت عليهم القيام بالمؤامرات ضد الأمانى الوطنية ، والاتجار بالرقيق والاستيلاء على الأراضى على نحو

ماوضح « جيمس دفى » فى كتابه « البرتغال فى أفريقية » من أن رجال « الجزويت » وسفنهم كانوا دائما مشغولين بنقل الرقيق الى الدنيا الجديدة ٠

ومما لاشك فيه أن أحدا لم يذكر أن الجماعات المسلمة وقفت فى العصر الحديث دون عمليات التحرر على نحو مافعل المبشرون فى جنوب السودان ، والكونغو ، وغانا ، أو أنهم ذكروا — على نحو ماقالوا بالانجيل — أنهم كانوا يملكون الأرض والمسلين القرآن ، ثم أصبحوا يملكون القرآن بينما يملك المسلمون الأرض ٠

وعلى كل فعلى رسل الثقافة الاسلامية أن يسدوا كافة الاحتياجات الأفريقية فى ضوء تخطيط منظم ، على أن تكون رسالتهم ذات شقين متصلين تمام الاتصال بالحياة والدين ، فالطبيب والمدرس والمهندس يمكن أن يكون من الدعاة بالسلوك الحسن ، وبالجوار الذى يجب أن يكون متصلا وعميقا بينه وبين الأفريقيين وفى الوقت نفسه يمكن التفكير فى انشاء « جامعة شرقية تكون مقصورة على الأفريقيين والمسلمين الأجانب بحيث يكون المنهج المخصص لهذه الجامعة فى خدمة الحياة والدين معا ٠

ولكى يتم هذا لابد من تقديم « أيدلوجية اسلامية معاصرة » فالعالم اليوم تسوده حرب الأفكار ، ولابد من أن تكون لهذه الأيديولوجية المرونة التى تستطيع أن تعطى حلولا اسلامية لكافة مايدور فى العصر ، كما أنه لابد أن تبدو « مقنعة » للذين يعتنقونها ٠

ومعنى هذا مضاعفة الجهد ، والنزول بالدين الى الحياة ، بعد أن نحى بالكسل ، وعدم النزول به فى معارك العقل ، والاجتهاد من الذين ينطقون باسمه ٠

وبهذا الفهم يمكن أن تسور أفريقية بالمآذن ، وأن يتضاعف الاسلام لا فى كل عشرين سنة ، ولكن فى كل عشر سنين ٠

وليس معنى هذا الدعوة الى « تكتل اسلامى ، وليس معناه الدعوة الى اقامة الدول على أساس دينى ، ولكن معناه « ملء الفراغ » فى أفريقية ٠

فالدول الأفريقية بعد أن استقلت ، والانسان الافريقى بعد أن تحررت ذاته لابد له من الانتقال من « الوثنية » الى مرحلة « الدين الكتابى » وقد دلت الدلائل انهم حين يتركون لأنفسهم يتجهـــون للاسلام ٠

اننا لاننسى هنا دعوة الكاتب الزنجى الأمريكى « ريتشـارد رايت » فى كتابه « اسمع أيها الانسان الأبيض » الى جعل أفريقية علمانية ٠

فهو يحمل على الذين ينادون بأن تكون أفريقيـة كاثوليكية ، أو بروتستانتية ، ويتساءل اذا كانت الدولة العلمانية هى الصالحة للأوربيين فلماذا لاتكون صالحة بالنسبة للافريقيين ؟ ثم يحمل حملة ضـارية على المبشرين الذين يتحـركون من خلف الزعمـاء الأفريقيين ، ويشير اليهم بأصابع الاتهام

والجواب هنا أن الاسلام لايعارض فى اقامة الدولة العلمانية ، بل أنه يدعو اليها ، ثم انه لايفصل الحياة عن الدين ، وأخيرا فهو يستطيع أن يقدم « وجهة نظر عصرية » فى كافة مايجد على الحياة ، فقد نظر للانسان على أنه حارس الحياة ٠

وأنه مطالب بالعمل ، وأنه محتاج الى المتعة وأن الحرية قوته ، والاندماج فى الجماعة سلاحه ٠

ولعل هذا يلقى علينا العبء فى استخراجه كنوزه ، وفى البحث الذكى الدائم فى حركة الحياة وحركة الدين ٠

انه اذا كان هناك عيب فسيكون فينا نحن ، أما الاسلام فسيظل « جوهره الحق والسعادة » التى لاتنـال بالدروشة ، والهمهمة ، والسطحية ، وانما بالمعاناة والتنقيب ، والربط الدائم بالحياة ٠

وهذا ما أعتقد أنا سائرون فى طريقه

ومن أجل القاء الضوء على دور الاسلام فى أفريقية أقدم للقارىء هذه الدول التى جلوتها من واقع التاريخ بدون تزييف ، أو مغالاة ، والتى تتمثل فى الدول الآتية :

١ ــ دول مدن أفريقية	٢ ــ الفونج
٣ ــ الغور	٤ ــ نقلى
٥ ــ البرنو	٦ ــ كانم
٧ ــ غانة	٨ ــ مالى
٩ ــ صنغاى	١٠ ــ الحوضة
١١ ــ الغلانى	١٢ ــ اليوروبا
١٣ ــ البمبارا	١٤ ــ التوكولور

ولعلى أكون بهذا قد أضفت « قطرة ضوء » على عالم الظلام الفكرى الذى مازال يحيط بافريقية ، وأكون لم اخسر بانتقالى من دائرة الشعر الى دائرة البحث ، فان كل ما يتصل بأفريقية يأسرنى ، ويملأنى بالسعادة ويجعل قدرتى أعمق على مواجهة الحياة .

والله الموفق .

دول مدن إفريقية

اذا كان المؤرخـــون لايختلفون على أن الشرقا الأفـريقى كان « مهجرا » للعرب قبل قدوم الاسلام ، فانهم لايختلفون على أن نقاط الارتكاز قد تحددت تماما بعد ظهور الاسلام ، بحيث أصبحت تمثل ما اصطلح عليه تاريخنا باسم

دول مدن أفريقية

ذلك لأن نقاط الارتكاز هذه كانت تمثل ارستقراطية تجارية محافظة ، بحيث كان من الصعب تجميعها فى كيان موحد قوى ٠

وأول ما يطالعنا من نقاط الارتكاز هذه ٠٠ تلك النقاط التى سميت : مند ، وبتى ، وبساسة وزنجبار ، وكلو ، وويب ، وأم واوازى ، والتى كانت تتركز على تلك المنطقة الجغرافية التى تتمثل فى الشاطىء الأفريقى الشرقى ، وفى الجانب الغربى من البحر الأحمر ٠

ونحن اذا تجاوزنا عن الملامح الباهتة للتقدم العربى الى أفريقية نستطيع أن نعثر على ملامح واضحة ومحددة لأشكال من التقـدم الاجتماعى ٠

فقد كانت هناك حوالى عام ٦٩٥ م هجرة عربية كبيرة تتمثـل فى هجرة سليمان وسعيد ابنى عباد الجلندى اللذين كانا حاكمين على عمان ، واللذين اضطرا أمام ضغط الحجاج بن يوسف الثقفى ، أن يتقدما فى جمع كبير الى أفريقية بعد أن فشـلا فى التثبيت للزبيريين ٠

كما كانت هناك هجرة الطائفة الزيدية حوالى عام (٧٣٩ م — ١٢٢ هـ) وهجرة الحسن بن على وأولاده ٠

بالاضافة الى هجرة بنى نبهان من عمان

وهجرة سبعة أخوة من الاحساء حوالى عام ٣٠٩ نتيجة لضغط حاكم مجاور لهم ٠

على أن مايشكل عمليات التقدم جميعا أنها — فى أكثرها — كانت نتيجة للصراع السياسى الذى كان بين الأمويين والعباسيين والعلويين ، بالاضافة الى « الخط التجارى » الذى كان يغرى الكثيرين بالمتى فوقه ، والتغلغل من أجله فى الشرق الأفريقى ، ومده بقدر الامكان الى أكثر من مكان بالداخل ٠

وهناك وثيقة هامة عثر عليها الاستاذ « تشيرولى » تحت اسم « تاريخ الزنوج » ، وقد نشرها فى مطبعة خاصة بالصومال ، وهى تتحدث بوضوح عن هذه الفترة فتقول ٠

« ٠٠ فى تاريخ سنة ٧٥ جاء العرب من الشام وهم جنود أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ٠ ٠ووصلوا الى مقديشيو والى كلوى ، وأرادوا الخروج من أهل البلاد ٠٠ وكان لهم أمير يقال له « موى بن زبير الخثعمى » وكان أهل البلاد له طائعين من أولهم الى آخرهم ٠

ثم جاء « المرسول » من الدولة العباسية الى السلاطين فى مقدشوه ، ومند ، وبتى ، وأم واوازى ، وبساسة ، وزنجبار ، وكلوى ، ويب ، كان الوزير يقال له يحيى بن عمر العنزى ، ونال من السلاطين مرادا ، ورجع الى بغداد بخير ، وأخبر أمير المؤمنين أبو جعفر عبد الله المنصور بكون أهل بلادنا فى الطاعة ٠

وفى سنة ٨٥ كان أمير المؤمنين عبد الله هارون الرشيد ببغداد وخاف منه الزنوج ، ولم يسلموا له خراجا ، وأرسل عساكر ، الى الزنوج ، وولى ولاة من الاعاجم ٠

ولما ظهر القول بخلق القرآن ضعف أمر المأمون ببلاد الزنج ، وصير المأمون خمسين الفا من عسكره ، وهزموا من في البلاد ، والقرى ، والمدن »

تلك هي الوثنية التي تؤرخ للعرب في أفريقية ·

على أن هذه القوى ظلت بعيدة عن بعضها البعض ومع أنها حاولت التجمع أمام التقدم العثماني والبرتغالي ، الا أن عملية التجمع هذه كانت من الضعف بحيث انهارت تماما أمام التقدم البرتغالي ·

ولقد شهد الكثيرون بأن البرتغاليين قد رأوا مدنا زاهرة في هذه المناطق ، ورأوا رخاء عجبوا له أكثر العجب ، على أنهم سرعان ما اتكأوا على نقطة الارتكاز الأثيوبي ، ثم عملوا على تخريب هذه المدن ·

ثم كانت عودة للنفوذ العربي حين استطاعت عمان أن تنفض عنها النوم ، وأن توجه للبرتغاليين ضربات قاسية ، ثم حين استطاعت أخيرا تكوين أول دولة « أفرسيوية » في تاريخ هذه المنطقة في عهد السلطان سعيد

وقد ظل العرب يحكمون في هذه المنطقة من نقطة ارتكاز كبيرة في « زنجبار » وظل هذا الأريج العربي يعبق من أردان السلطان « جمشيد » حتى كان عزله في يناير عام ١٩٦٤

على أن هذا الحادث بما تبعه من الضغط على العرب لايمكن أن يمر دون أن يذكرنا بعملية العزل الأخرى التي كانت في غرناطة ، والتي كانت تمثل انحسار القوى الاسلامية في أوربا ، وهذا يجعل مستقبل العرب في هذه المنطقة في كفة الرياح

على أن مما لاشك فيه أن العرب في هذه المنطقة قد نشروا المعرفة ، ودفعوا بالاسلام الى الداخل ، واستطاعوا تغيير المفاهيم الأفريقية ، وعملوا على تثبيت الدعائم العميقة للاسلام ·

الفــونــج

اختلف المؤرخون حول كلمة « الفونج التى أطلقت على سلطنة « سنار » ، فقد قيل انها كلمة فى لغة « الشلك » الذين يقيمون فى أعالى النيل الأزرق وقيل انها فى لغة « النوير » وقيل غير ذلك ، على أن المعنى الذى يعبر عن هذه الكلمة فى هذه اللغات جميعا هو معنى « الغريب » ٠٠ ممايدل على أنهم وافدون على هذه المنطقة ٠

وكما اختلف المؤرخون حول هذه الكلمة ، نراهم يختلفون كذلك حول أصل هؤلاء « الفونج » ، فقد قيــل انهم ينتمون الى قبيلة الشـلك ، وقيل انهم فرع من الأسر التى كانت تحـكم فى دولة « برنو » التى تقع غرب السودان ، وقيل انهم من « دارفور »

كما قيل انهم من « بنى أمية » ، وأنهم نزحوا الى الحبشة بعد أن قام بينهم وبين العباسيين صراع مرير ، وأن العباسـيين لم يكتفوا باجلائهم عن مناطق نفوذهم وانما تتبعوهم ا لىهذه البلاد التى نزلوا فيها ، فقد استقر رأيهم على أن يخاطبوا فى شأنهم حكام الحبشة ، وأن يحتجـوا على اسـتقبالهم فى بلادهم ، وأن هـذا سيضطرهم الى قطع العلاقات معهم ٠

وازاء هذا يضطر الأحباش الى التخلص منهم ، فاذا بهم يتركون الحبشة الى الاماكن المتاخمة لها ، ومن هذا المكان أصبح لهم « ثقــل سياسى » فى السودان بل وفى الصراع الدائر فى المنطقة الشرقية نفسها ، ومما يدل على هذا تلك الرسـالة التى وجهها « عمــارة دونقس » الى السلطان سليم الذى كان يقوم بسياسة توسعية فى هذه المنطقة فقد جاء فيها « ٠٠ إنى لا أعلم ما الذى يحملك على حربى ، وامتلاك بلادى ، فان كان لتأييد الاسـلام ، فانى وأهل

مملكتي عرب مسلمون ، ندين بدين رسول الله صلى الله عليه وسلم وان كان لغرض مادى ، فاعلم أن أكثر مملكتي عرب بادية ، وقد هاجروا الى هذه البلاد فى طلب الرزق ٠٠ »

ومما يؤيده كذلك خطاب السلطان « محمد بادى عجيب » الى بنى أمية المقيمين فى دنقلة ، مذكرا اياهم بأن الأسرة السنارية تنتمى الى الأمويين ، ولعل مايؤيد هذا الرأى كذلك أن كثيرا من الروايات المحلية وأن الفونج أنفسهم فيما أثر عنهم يؤكدون دائما أنهم ينتسبون الى « بنى أمية »

ومع أنهم قد استطاعوا أن يتجمعوا كظاهرة سياسية فى جنوب غرب أرتيريا ، الا أن السودان بمراعيه ، وبعده عن حكام الحبشة قد جذبهم اليه ، على أنهم بعد نزولهم الى السودان لم يقفوا كظاهرة منعزلة ، أو كطبقة تتغالى على الناس وانما نراهم يسارعون فيندمجون فى الوطنيين ، ثم يتحدثون اليهم فى حب عن الاسلام ويقدمون لهم سلوكا عمليا عن « المواطن المسلم الجديد » فى علاقاته بربه ، وبالناس من حوله ، ثم يتقدمون خطوة أخرى حين يطلبون منهم المصاهرة ٠

وحين تلتقى هذه الدماء الوافدة بالدماء المقيمة ، نرى هؤلاء الفونج يحسون « بالمسئولية » نحو هؤلاء الناس الذين اختلطوا بهم ، ونحو هذا الدين الجديد الذى هز أعماقهم ونحو هذه المفاهيم الانسانية التى تضيب الناس « بالقلق » ، وتجعلهم يتحركون الى نوع عميق من ألوان الحياة ٠

وقد أدركوا هذا لأنهم سرعان ما أحسوا بسأم الحياة وهم ينتشرون فى الصباح الى المراعى ، ثم وهم يعودون بها الى قراهم فى المساء ٠٠ لم يعد الغناء الواهن الرتيب يجمع أيديهم فى حلقات أو الأحاديث اليومية تحتى متهم الزعوس فى اهتمام ، ذلك أنهم كانوا قد أدركوا شيئا لم يدركه الناس من حولهم ، وقد شغلهم هذا الشىء ، وملك عليهم حياتهم ، حتى أحسوا أن نفوسهم تضيق عليهم ، وأنه لابد لهم من « مساحات نفسية » كبيرة ، وأن هذا

التوتر لن يختفى الا حينما تكون لهـم دولة تقوم على هذا الدين الجديد الذى هداهم الى حقيقة أنفسهم ، والى حقيقة الحيـاة من حولهم ٠

فمن الحقائق التى عرفوها ـ فى ضوء الاسلام ـ تأمين الطرق التجارية الى حوض النيل الأزرق ، وتجميع القوى المشتتة للعروبة التى تغطى مساحات كبيرة فى هـذه المنطقة وعلى جوانبهـا حتى يستطيعوا تأمين أنفسهم من الحبشة ان أرادت بهم شرا ، ومن مملكة « علوة » السودانية أن أرادت أن تتحرك باسم المسيحية ٠

وقـد أدى كل هذا الى الحلف الذى قام بين الفونج بزعامة عمار دونقس » وبين « عبد الله جماع » شيخ العبـدلاب والذى كان من نمرته التحرك ثم الاصطدام بأهل « علوة » فى موقعـة « أربجى » ثم دخول العاصمة « سوبا » وتخريبها ، ثم الاستيلاء على عاصمة مملكة المغرة المسيحية ، واقامة العبد لاب بها ٠

وبعملية التحرك هذه ، وما سبقها من تسلل سلمى يكون هـذا الحلف قد وضع يده لأول مرة على اقليم الجزيرة الممتد من سنار الى سوبا ، ويكون النفوذ المسيحى قد انهار تماما ، ومـع أنه حـدث توسع بعد ذلك الا أن عام ١٥٠٥ م يكون قد شهد اقامة أول دولة اسلامية فى السودان ٠

وقد تلفتت البلاد حولها فوجدت نفسها داخل وحدة لم تتم لها من قبل ذلك لأن « عمارة دونقس » سرعان ما تحول الى البناء الداخلى للدولة ، فكان أن قام بعملية صهر اجتماعى بين العناصر العربية والعناصر المحلية ، بحيث استطاع أن يستنبط منها قوة جديدة حركت التاريخ فى هذه المنطقة ، فبعد أن كانوا متفرقين فى منطقة « بلولو » جمعهم حول « جبل مويه » بالقرب من سنار ، ثم صيرهم وحدة عضوية حين تنقل بهم الى العاصمة الجديدة فى « سنار »

ولقد أحست هذه الدولة أنه لابد لها من « نظرية » تسير فى ضوئها ، وتقيم حياتها الجديدة على أسس راسخة منها ، وقد كان

من الطبيعي أن تسير في ضوء التعاليم الاسلامية وهكذا تحركت الدولة عقليا من واقع التعاليم الاسلامية ، ومارست حياتها في مناخه العقلي بفهم وتطلع ، وقد تطلعت نفوس الناس فيها الى أن يضيئوا بهذا الدين الجديد حياة النـاس من حولهم ، فكان هذا الاحتكاك الذي قام بينهم وبين الشلـك ، وبين النوباويين ، وقـد استحدثوا في كل هذا ظاهرة جديرة بالاعجـاب ذلك أنهـم مع معاركهم التوسعية ، أو في رد القبائل عن حدودهم كانوا يستقدمون الأسرى ثم يطلعونهم على أسرار الاسلام ، فاذا ما اطمأنوا الى أن الدين قد مازج نفوسهم دفعوا بهم الى المناطق التي أتوا منها ليكونوا بدورهم دعاة باسمه .

ولما كانت هذه البلاد في حاجة الى غـزارة فكرية متـوالية ، وكانت تطمع في الوقت نفسه الى أن تصبح دولة اسلامية كبيرة ، فأنا نراها تفتح قلبها للعلماء من كل البلاد الاسلامية ، وكان أن رأينا بها المدارس الآتية :

١ ـ المدرسة المصرية :

وقد اتسمت هذه المدرسة بالطابع العلمي الذي كان سائدا في هذا العصر ، ذلك لأن القائمين بها اطلعوا الناس على جدليات الفقـه وفلسفات التوحيد ، وأسرار اللغة العربية .

ومن الرواد الأول لهذه المدرسة هؤلاء العلماء السـودانيون الذين درسـوا في الأزهر في هـذه الفترة المبكرة ثم عادوا الى بلادهم لينشروا ماتعلموه من مصر ، ومن هؤلاء « الشـيخ محمود العركي » الذي يقال أنه أول من علم الناس العده ، لأن المرأة كانت تطلق من زوجها ، ثم تتزوج من آخر في نفس اليوم الذي طلقت فيه وقد أثر هذا الرجل في سير التعليم ، لأنه عمل على انشاء سـبع عشرة مدرسة تسير على نهج التعليم الذي كان متبعا في مصر في هذه الفترة .

ومن هؤلاء « أولاد جابر الأربعة » الذين وسعوا دائرة الثقافة في البلاد ، وعملوا على نشر مذهب الامام مالك بحماس ، وفهم .

على أن البلاد سرعان ما امتلأت بالعلماء المصريين مثل الشيخ « محمد القناوى » والشيخ « يوسف عبد الباقى الزرقانى ، والشيخ محمد بن على بن قرم » الذى أدخل مذهب الامام الشافعى الى البلاد ، وقد أكد هذا المذهب من بعده ابنه الشيخ « الشكال » وقد قفزت البلاد قفزة كبيرة فى عهد الملك « بادى أبودقن » ذلك لأنه كان دائم الصلة بالعلماء فى أكثر من بلد اسلامى ، وبخاصة فى مصر ، مما جعل الشيخ « عمر المغربى » الذى كان يتولى منصب الافتاء فى مصر ، وكثيرا من علمائها يلهجون باسمه ، ويسوقون الشعر فى مدحه ، ويقولون أن سنار فى عهده أصبحت تتيه فى عهده على كل البلاد حتى على مصر ومن هذا ماجاء فى تلك القصيدة التى أرسلها اليه الشيخ عمر المغربى •

وأضحت بهسنار فى الانس والصفا	وتاهت على البلدان حتى على مصر
تبارك من أنشاه للخلق رحمة	وزان به الأزمان كالعقد فى النحر
وصير أمرى فى يديه فان يشأ	أزال برغم الدهر مابى من الضر
فانى فقير والفضائل حرفتى	وفى مصر أرباب الفضائل فى قهر
وقد جاءنى منكم كتاب معظم	وفى سلكه نظم الجواهر والدر
بديع المعانى قد زها ببيانه	ومنظره البادى كعقد من الدر
فقبلته ألفا ، وحقا جعلته	على الرأس اجلالا وأودعته صدرى

٢ ـ مدرسة الحجاز

وقد كان تأثير هذه المدرسة قويا على المواطنين ، ذلك لأن الاحتكاك التجارى كان مستمرا بين البلدين ، وكان هؤلاء التجار بالاضافة الى الحجاج يستمعون الى العلماء فى مواسم الحج ، ويتأثرون بأساليبهم فى التعليم والتفكير ، وقد كان من أشهر الظواهر العقلية التى نقلت الى البلاد تأثرها بالمذهب الوهابى الذى اعتبر رافدا من روافد التفكير فى فترة « المهدية » التى أظلت البلاد بعد ذلك •

٣ ـ مدرسة المغرب :

لقد كان الفونج على اتصال مستمر بالقبائل المغربية التى تفد الى الجنوب ، وكانوا يفتحون أبوابهم لعلماء المغرب وتجاره وقد اشتهرت هذه المدرسة بالطابع الصوفى ، فأول طريقة صوفية عرفها السودان كانت « الطريقة الشاذلية » التى أدخلها الى هناك الشريف محمد المراكشى عام ١٤٤٥ م ، ثم قدم وفير من العلماء المتصوفين فى مقدمتهم « عبد الكافى المغربى » ، والتلمسانى المغربى ، وآخرون قدموا من الأندلس مثل « حسن و« حسونة » ، ولم يقتصر أمرهم على نشر التصوف فقط وانما عملوا على تأكيد مذهب مالك ٠

٤ ـ مدرسة العراق

تشارك هذه المدرسة مدرسة المغرب فى تأكيد دور التصوف فى البلاد ، وقد كان فى مقدمة هؤلاء « تاج الدين البهارى البغدادى» الذى كان من ألمع المتصوفين فى عصره ، والذى عمل على تأكيد « الطريقة الجيلانية »

والظاهرة الواضحة من كل هذا أن الاسلام كان يؤخذ أخذا « عاطفيا » ، وأن الجانب الصوفى كان يغطى على الجوانب العملية فيه ، وأنه قد تسربت اليه كثير من النظم والسلوك التى لايقرها ، وقد كان السبب فى كل هذا أن الاسلام لم يدرس دراسة علمية ، وأن الناس كان يبهرها الرجل المتصوف عن الرجل العالم ومن هنا كانت التزاويق والمهومات والقول بالتكشف والتحصيل الباطنى بدلا من الممارسة والمعاناة ، والوصول الى الحقيقة عن طريق البراهين العقلية ، مما كان طابعا عاما للعصر فى هذه الفترة ٠

ومن خلال هذا نرى أن هذه الدولة فى اندفاعها الأول قد حققت الكثير للاسلام ، وأن « العلماء » والمتصوفة كانوا يقفون على قمة التنظيم الاجتماعى ، وأنهما لم يستطيعا القيام بعملية تجديد دائم لفكر الدولة ، وللعمل على صهره ، وتذويب الفوارق بين قبائله ٠

ولعل أقسى الضربات التى وجهت لهذه الدولة هو عملية تصدع « الحلف » الذى كان قائما بين الفونج والعبدلاب ثم الدخول مع بعض الدول المجاورة فى حروب لتأمين الطرق التجارية .

ولقد كان مما أوهن بناء الدولة هذا الاحتكاك الذى قام بينها وبين الحبشة ، فقد كانت هنا كمعارك مستمرة على الحدود ، وملاحاة بين الحكام تحمل نجاشى الحبشة أن يرسل الى السلطان « بادى سيد القوم » سوارا من الذهب للاشعار بأن بلاده فى وضع أقوى ، فاذا بالسلطان بادى يرسل اليه هدية مكونة من فرسين أعرجين أعميين ، ثم ان اللاجئين السياسيين كانوا يترددون على كل من الدولتين ، وقد كان فى مقدمة اللاجئين الى الحبشة السلطان « بادى أبو الشلوخ » حين عزله الشيخ « محمد أبو اللكيلك » ، فاذا أضفنا الى ذلك أن البعثات التبشيرية كانت تدفع الحبشة الى هذا الاحتكاك بهذه الدولة المسلمة فى الوقت الذى أصبحت فيه الفونج تكاد تكون مقطوعة الصلة تماما بالعالم الاسلامى وأنها على شقاق بدولتى الغور وتقلى وبالشلك ، وأن بعض حكامها كانوا يفرضون عليها هذه العزلة .. اذا عرفنا ذلك أدركنا أن التصدع قد أخذ يتسرب الى كيان الدولة ، وأن الأسرة الحاكمة قد انصرفت الى اللهو ، وعدم فهم مجريات الأمور حولها ، مما جعل أسرة « الهمق » تضع يدها على الحكم .

وهكذا حمل القرن الثامن عشر معه بوادر القضاء على هذه الدولة التى لم تطور نفسها ، والتى وقفت جامدة فيما يتصل بسياسة الحكم ، وولاية العرش ، والحفاظ على الأطراف والسماح للأقليات بالوثوب الى الحكم .

وهكذا رأينا الأتراك حين قدموا الى « سنار » يريدون غزوها عام ١٨٢٠ م وجدوا دولة متداعية لاتستطيع المقاومة ، دولة لاتستطيع الا أن تسلم فقط للقوى الجديدة .

الفـــور

من الدول الاسلامية التى كان لها دور كبير فى نشر الاسلام بالسودان دولة « الفور » التى تطاق الآن على مديرية « دارفور » التى تقع الى أقصى الغرب من جمهورية السودان .

وقد ضمت هذه المنطقة فى أول الأمر شـعبا أسود هو شعب « الداجو » الذى وفد على البلاد من الشرق فى هجرات متتابعة ، ثم استقر أخيرا فى تلك المنطقة يمارس الوجود من حوله فى بساطة وعفوية ، وفى انعزال يكاد يكون تاما عن القطاعات الآهلة بالافريقيين من حوله .

ولكن الحياة ما لبثت أن تغيرت فى هذه المنطقة بعد أن تلقت عنصرا من تونس يسمى التنجـور ، ذلك العنصر الذى كون مع المجموعة الأولى ما سمى بشعب الفور .

وتعتبر شعبة التنجور هذه التى يقال أنها تغلغلت الى الجنوب تحت ضغط زحف الهلالية وحلفائها فى الشـمال ، والتى دخلت البلاد فى القرن الرابع عشر الميـلادى .. ذات أثر كبير فى ادخال الاسلام الى هذه المنطقة ، وقد وفد مع هؤلاء القادمين رجل عربى قوى يسمى « أحمد المعقور » ، فقد تمكن من التسلل الى قلب الملك الوثنى « دورشيت » ، بحيث لم يملك الملك الا أن يفتح بلاده

وقلبه لهذه الجموع المقبلة على بلاده ، وقد توثقت الصلة بينهما الى الحد الذى طلب فيه « أحمد المعقور » يد ابنــة الملك ، والى حد المناداة به خليفة على دولته .

وقد شغل « أحمد المعقــور » فى هذه الفترة بعملية صــهر المهاجرين بالوطنيين ، واستحداث طريق جديدة فى نظم المعاملة ، وانعاش اقتصاديات البلاد ، وكسر سلاسل العــزلة التى تحيط بها ، وقد ساعد كل هذا ولده « سليمان صولون » الى أن يثبت من أركان هذه الدولة ، والى أن يستقدم اليها بعض القبائل العربية التى تضرب فى أرجاء السودان ، بحيث لم يمض وقت كبير حتى وفدت على هذه البلاد قبــائل عربية كبيرة تتمثل فى الهبــانية ، والرزيقــات ، والمســيرية ، والتعايشــية ، والمعالبة ، والحمر ، والزيادية ، والماهرية ، والمحاميد ، وبنى حميد ، وحين رأى هذه الطاقة العربية تثرى الحياة من حوله رأى أن يستقدم اليه بعض العلماء حتى يتمكن من كسر الحواجز التى تفصل بينهم ، وعلى ربطهم فى كيان عام يسمى « الدولة » .

وبهذه القوة الجديدة استطاع أن يوحــد بين القبائل ، وأن يمزجهم بالوطنيين ، وأن يفتتح ما كان يسمى « بالممالك السهلية » وأن يصل بلاده بمراكز الاسلام في الشرق ، وقد سارت أسرته فى هذا الطريق ، وعملت على نشر الاســلام فى البلاد المجاورة لها ، واهتمت أكثر ما اهتمت بتدعيم العلاقات التجارية بينها وبين مصر وقد دعا هذا الاهتمام الســلطان « عبد الرحمن » الى أن يهنىء « نابليون بونابرت » باســتيلائه على مصر ، لأنه لم ينظر للأمر الا على أنه طرد للمماليك الذين كانوا يعطلون التجارة بين بلاده وبين مصر .

وقد توسعت هذه الدولة فى بعض الفترات فشملت جزءا كبيرا دولة نقــلى (كردفان) ، وامتد نفــوذها حتى موضع « أم

درمان » الحالية ، كما وضعت يدها فى الغرب على سلاطين « المساليط » .

وقد ساعد على ازدهار هذه الدولة أنها كانت تتمتع باقتصاديات سليمة ، ووضع جغرافى مهم جعلها مطروقة بالقوافل التجارية .

وقد اهتمت الدولة بالتعليم فأرسلت بأبنائها الى مصر لتلقى العلم فى الأزهر ، حتى لقد أصبح لهم لكثرة عددهم رواق يسمى رواق « دارفور » ، وفى الداخل كان العلماء يتمتعون بحظوة كبيرة فكان لكل منهم مسجد يهرع الناس اليه لتلقى العلم ، وقد كان من أشهر هؤلاء العلماء الشيخ النمر ، والفلانى ، وحسين عمارة الأزهرى ، والشريف مساعد .

وقد كان من المناظر المألوفة فى الدولة أن يسير الطلاب حينما يقبل الليل الى حلقات الدرس ، ثم توقد النيران ويجلسون بألواحهم حول « الشيخ » ، ذلك لأنهم كانوا يقضون قضاء النهار فى تحصيل قوتهم .

وقد كون فيهم كل هذا ما يمكن تسميته بالشعور « بالدولة الدينية » فكانوا من أشد الناس تدينا ، وكانوا يعتصرون حياتهم اعتصارا للاشتراك فى « حدة الحرمين » ، وقد تقربوا ما أمكنهم من تركيا باعتبار الخليفة فيها « رمز الاسلام » ، وقد كان من أثر عملية التقريب هذه أن أنعم الخليفة على السلطان عبد الرحمن بلقب « الرشيد » ، على أن الأمر لا يقف عند هذا وانما يتعداه الى انضمام السلطان « على دينار » الى تركيا فى الحرب العالمية الأولى والى أن يكتب بهذا الى الاستانة ، والى أن يعلن عداءه لكافة الدول التى تعادى تركيا ، ولعل مما زاد فى حساسية الأمر أن الانجليز كانوا على حدوده ولكن كان يحلم بتكوين دولة اسلامية كبيرة تمتد حتى تصل الى الشرق الافريقى ، وبهذا وقفت هذه الدولة « موقفا

فريدا » فى هذه الفترة الحادة من التاريخ ، وعلى الرغم من أن هذه الدولة وقعت فى منازعات مع سلطنات الفونج ، وتقلى ، ووداى ، ومع المهدية التى قامت فى السودان ، الا أنهـا ظلت فى كافة هذه الحالات متماسكة .

ولكن انجلترا تدخلت فى الأمر تدخلا حاسما ، حينما رأت هذه الدولة لا تقيم وزنا للمعاهدة التى وقعتها مع « الحكم الثنائى » وحين رأتها تنضم صراحة الى تركيا ، فكان أن عملت على حصارها اقتصاديا ، وعلى اثارة بعض القبائل عليها ، والى ترك فرنسا تعبث بحدودها الغربية ، ثم كان دخـولها معها فى معـركة حاسـمة ، استطاعت أن تحقق من ورائها فى موقعة « برنجية » عام ١٩١٦ انتصارا على هذا القلب الذى كان ينبض باسم العروبة والاسلام فى افريقية ، والذى ظل مستعصيا عليها لفترة كبيرة .

وتوجد فى دارفور الآن آثار كبيرة تتراوح بين القصور المبنية بالحجر ، والمنشئات الأخرى التى من المحتمل أن يكون معظمها قد أنشىء بعد عام ١٥٠٠ م ، ولكن من المؤكد أن آثار « أورى » عاصمة التنجور قد أقيمت قبل هذا التاريخ على الطراز الافريقى حيث يكون الكوخ مستديرا ، ومحاطا بجدران أو سياج .

ومهما يكن من شىء فقد نسب كثير من العرب الموجودين فيها أنفسهم الى « بنى أمية » ، فقد ذكروا أنهم قدموا الى هذه البلاد تحت الضغوط السياسية التى كانت تثقل كاهلهم ، وتجعلهم يضيقون بمواطنهم ، وانهم لم يجدوا أمامهم الا هذا المكان الكبير من افريقية ، حيث الامتداد الكبير ، والمراعى المزدهرة ، والنفوس التى تقبل على الاسلام .

تقلى

تمثل هذه الدولة احد زوايا المثلث الاسلامى الذى قام فى السودان ، والذى كان لقيامه أثر كبير لا فى السودان فقط ، ولكن فى بقية العالم الاسلامى ، ذلك لأن « السودان المسلم » ولد بين حقبتين تعتبران من أقسى الحقب على الدول الاسلامية ففى عام (٨١٧ هـ ـ ١٤٩٢) كانت اسبانيا الاسلامية قد سقطت بسقوط غرناطة ، وفى عام (٩٢٢ هـ ـ ١٥٩٧) كانت مصر قد وقعت فى ايدى الأتراك العثمانيين ، بالاضافة الى أن العراق كان ما زال يعانى من آثار ثورة تخريبية مرت به ، والشام كان قد سقط هو الآخر فى قبضة العثمانيين ، وفى الحبشة كانت الأمور قد خرجت من ايدى المسلمين تماما ، أما الشمال الافريقى فقد كان بريقه قد انطفأ .

وفى هذه الظلمة راينا السودان يحمل عبء المد الاسلامى ، ويستقدم العلماء المضطهدين هنا وهناك ، ويرحب بالمهاجرين الأندلسيين الذين تصل أقدامهم الى هذه البلاد .

وقد حملت مملكة تقلى هذا العبء ، ونهضت به ، وسط جبال « تقلى » فى الشمال الشرقى من منطقة جبال النوبا غربى السودان ، وهى ما يطلق عليه الآن فى جمهورية السودان اسم « كردفان » .

ويرجع الفضل فى ظهور هذه الدول ــ فى أواسط القرن السادس عشر ــ الى هجرة زاهد جعلى حوالى عام ١٥٣٠ الى ربوع

هذه البلاد ، فقد استطاع بورعه ، وحسن اسلامه ، أن يجذب قلوب الناس اليه ، وأن يجعلهم يلتفون حوله وهو يصلى .. وهو يقرأ القرآن بصوت خاشع .. وهو يمارس سلوكا رصينا فى كل ما يتصل بعلاقاته بالناس .

ومن هنا نرى الناس — واكثرهم من النوبا — يلتفون حوله ، ويشاركونه صلاته ، كما يشاركونه دموعه فى بعض الأوقات حينما تسيل دموعه تقى وورعا ، وخوفا وحبا فى الله .

وما أسرع ما تحدث الناس عنه الى ملكهم الذى كان عند حسن ظنهم ، فقد دعاه الى مجلسه ، واستمع منه الى هذا الدين الجديد ، ورغب فى أن يبقى الى جواره حيث يهديه وشعبه الى الاسلام .

وقد توثقت هذه الآصرة ، حينما تزوج هذا الزاهد احدى بنات الملك ، وحينما أثمر هذا الزواج ولده المعروف باسم « جيلى أبو جريدة » الذى كان سعيدا حين ورث ملك جده ، وأصبح حاكما البلاد حوالى عام ١٥٧٠ ميلادية .

وقد وسع « جيلى أبو جريدة » رقعة البلاد بحيث أصبحت تضم الاقليم الشرقى من الجبال ما بين « تالودى » جنوبا . الى « أبو جبل » شمالا ، كما شجع العرب المقيمين حول مملكته الى ان يدخلوا بلاده ، ويختلطوا بالسكان ، ويصهروا اليهم ، ليتسنى لهم جميعا العمل على تعريب البلاد ، والاسراع بنشر الاسلام فى داخل الدولة وخارجها ، وقد أثمرت دعوته هذه قدوم زحوف كبيرة من القبائل العرب تتشكل من الجعليين ، والبديرية ، والجوامعة ، والكواهلة ، وكنانة ، وقد دعا هذا المؤرخين الى أن يذكروا أن العنصر العربى كان ظاهرا فى « تقلى » أكثر من ظهوره فى « دارفور » والخطوة الموفقة التى تذكر لهذه الدولة أنها دفعت بالاسلام الى ما وراء جبال النوبة ، ذلك لأن هذه الجبال كانت

تقف كالقلعة المنيعة دون دخول الاسلام الى ما وراءها ، ولكن هذه الدولة جعلت من هذه الدعوة « مركزا اسلاميا » لم يقف دوره على الترحيب بالاسلام كدين جديد ، وانما تعداه الى التبشير به فى حماس وقوة بالغين .

ولما كانت هذه الدولة محدودة الموارد ، وضئيلة بالنسبة الى دولتى الفونج والفور ، فانا نجد أنه كان من الميسور على هاتين الدولتين — فى حومة الصراع على التوسع — أن يخضعاها بين الآونة والأخرى ، فما تكاد تستنشق نسيم الحرية حتى ترى نفسها واقعة بين يد الفونج مرة ، وبين يد الفور أخرى .

وسرعان ما أدى الصراع بين هذه الدول الثلاث بالاضافة الى عمليات التخريب الداخلية وعدم انتظار الموارد — الى تجميدها جميعا ، والى اطفاء الشعلة التى كانت تخفق فى صدر « تقلى » .

فبعد أن تراوح على عرشها تسعة عشر حاكما من ابناء « جيلى أبو جريدة » وبعد أن سقطت فى آخر الأمر تحت سلطة « الفور » وحكمها وال فورى يسمى « المقدوم مسلم » أصبحت مهيأة تماما للسقوط فى أية يد قوية تهز جذعها المتداعى .

ورغم أن « المقدوم مسلم » حين أحس بقدوم « الدفتردار » أسرع اليه ، واشتبك معه فى « بارة » رغم هذا الا أن كل شىء هناك كان يؤكد وقوع هذه الدولة فى يد أية قوة قادمة وقد تم هذا على يد جيش « محمد على » الذى سالكها من جديد فى عقد السودان .

البـــرنـــو

بعد أن استمرت الضغوط على دولة « كانم » ، وبخاصــة من « البولالا » لم يجد السلطان (عمر ادريس ١٣٩٤ ـ ١٣٩٨) مفرا من السير الى « برنو » غربا ٠

وقد وجد الحال هناك شبيها ببلادة ، فقد كانت البلاد «مهجرا » لكثير من القبائل التى تعيش فى الشرق ، وللقبائل البربرية ، والعربية ولقد كانت هذه الهجرات تحمل معها رسالة جديدة هى « رسالة الاسلام ، الى هذه البلاد التى كانت على وثنيتها ، ما عــدا بعض البقع » التى كانت قد تأثرت تأثرا سطحيا بالمسيحيــة فى الطبقة العليا من المجتمع ٠

على أن هجرة « السلطان عمر » لم تكن هجرة أسرة مالكة هاربة من الضغوط ، ومهددة بالتشريد ، لأنه قد تبعته كثير من القبائل فى الجسر الممتد الى الغرب من البلاد ٠

وقد أحسن « السلطان عمر » بالتوجه من الشرق الى الغرب ، لأن هذه المنطقة كانت غنية بالمراعى ، ومن هنا كان تقاطر الجماعات المستمر لتغطية هذا الجزء من المنطقة ٠

وقد عاشت الدولة هناك فى حدود البساطة ، وفى حـدود « الرضى بالواقع » وعدم الرغبة فى دفع الحدود ثم تثبيتها باسم دولة البرنو ٠

ولكن (ادريس الثانى ١٥٠٤ـ١٥٢٦) كان طموحا ومتفجرا بالحياة ، كما كانت عيناه تتجهان دائما الى الشرق ، وكأنه كان يحمل «كل العذاب» الذى حمله من سبقه حين اضطروا الى الفرار والى مغادرة أوطانهم وذكرياتهم ٠

كما أنه كان ثاقب الذهن الى حد أنه كان يدرك أن « بحيرة تشاد » الكبيرة ، يجب أن تكون عامل تجميع لاعامل تفريق ، وأنه لتكوين دولة قوية لابد من وضع اليد على منطقة الشرق ، بالاضافة الى منطقة الغرب التى لاتزال تحت سلطته ٠

ذلك لأن البحيرة كانت تقع بين اقليمى السفانا والحشائش الى الجنوب ، والى والصحراء والأعشاب الوفيرة الى الشمال وكانت فى حقيقة أمرها « واحة مائية » وسط الصحراء القاسية التى تحيط بها ٠

ومع أنها تتكون من « حزمة ألوان باهتة » ، لاتمثل نضرة الخضرة بنباتات الخيرزان والبوص والمتسلقات ، ولا تمثل الزرقة المريحة بسبب ضحالة المياه ، ولا تمثل « العزوبة التى تشد الناس شدا بسبب وفرة الملح فى المياه ٠٠ مع أنها كانت كذلك الا أن سلطان البرنو أصر على توحيد الشاطئين ، وقد تم له ماأراد ٠

ثم ان (ادريس علومه ١٥٨٠ ـ ١٦١٧) عمل يفهم على توحيد الدولة ، الى حد سر الأطراف التى كانت توجد بها المسيحية والتى سرعان ما حول ماوجد بها من كنائس الى مساجد ، ومن أديرة الى قصور ٠

بحيث يمكن القول أن القرن السادس عشر حين أهل على البلاد كانت الدولة قد عرقلت تماما نشاط « البولالا » وفتحت الطريق الى دولة « سنغاى » وساعدتها فى حربها ضد المغاربة ، كما أنها انتصرت على « الحوصة » فى كانو ، و « التيبو » فى الصحراء ،

و « الطوارق » في آير ، و « البورما » فى الجزر و « الباقرمى » فى جنوب البحيرة ، كما منعت شعب « الغلانى » من التقدم نحوهم ٠

وقد ضمن لها « عملية التحرك السريع » أنها عرفت الأسلحة النارية عن طريق الأتراك ، وأن المغاربة ـ الذين كانوا أصحاب القوة الحقيقية فى أفريقية الاستوائية ـ كانوا قد شغلوا بالتقدم التركى ، والبرتغالى ، والأسبانى على طول الشمال الأفريقى ٠

الا أن كل هذا لم « يثبت نجمها » ابتداء من القرن السابع عشر ، ذلك لأن هذا النور قد بدأ يرتعش بسبب ضعف اقتصادها الذى كان يقوم على تجارة الملح ٠ والرقيق ، وعلى الصيد ، والرعى ، ولان اتصالها بالمدن الاسلامية كان سطحيا مما جعلها فى شبه عزلة ٠

بالاضافة الى أن الحكم فيها كان يعتمد على « طبقة ارستقراطية» تتقاسم فيما بينها الاقطاعيات والأقاليم ٠

أما الشعب فلم يستغل قواه أحد للاحتفاظ ببقايا « النور المرتعش » الذى انتهى تماما فى القرن التاسع عشر ، بعد أن كانت بلاده تشبه « العقدة » التى تربط بين النيل فى الشرق ، وحوض النيجر فى الغرب ، فقد كان يمكن عن هذا الطريق القيام بدور أكثر عمقا فى المنطقة ٠

وقد قام بهذا الدور فعلا القائد السودانى « رابح فضل الله » الذى وصل الى هذه المنطقة عام ١٨٩٣ ، واستطاع أن يكون لنفسه امبراطورية هناك ، وأن يلقب بلقب « سلطان برنو وملحقاتها »

الا أن عام ١٩٠٠ حمل اليه الفرنسيين هناك ، واستطاعوا هزيمته وأن يجعلوا من البلاد أحد الأقاليم الأربعة ، التى تكونت منها « أفريقية الاستوائية الفرنسية »

ونظرة واحدة الى المنطقة ، والى نسبة المسلمين فيها الذين يمثلون ٨٠٪ بينما يتقاسم الـ ٢٠٪ المسيحيون والمسلمون ·· توضح لنا أن عملية التغلغل الاسلامى هناك ترجع الى دولة «برنو» التى نجحت فى الدفع فى أكثر من اتجاه

ونظرة واعية الى ملامح الاسلام هناك توضح أنه حصيلة مشرفة للأخذ بمذهب الامام مالك ـ الذى يعتبر الآب الروحى للمسلمين فى أفريقية ـ ، وللتأثر بالوهابية ، والسنوسية ، والطرق الصوفية ، وكذلك النظريات العربية التى كانت سائدة فى هذه الفترة فى جامعتى الأزهر والزيتونة ·

وهكذا تقدمت « برنو » بالاسلام عدة خطوات فى قلب أفريقية ·

كانم

شاهد القرن الثامن الميلادى ميلاد دولة قوية فى منطقة المراعى بين النيل والنيجر ، وتقع تماما فى الشمال الشرقى من بحيرة تشاد وقد هيأ لها موقعها ان يطلق عليها بحق « دولة مفترق الطريق العظيم لافريقية الاستوائية » .

وقد هيأت لها هذه الأهمية تلك الهجرات الكبيرة التى وفدت على هذه المنطقة من الشرق ، والتى كان تقدمها لانهيار مملكة « كوش » ومملكة « مروى » ، وضغط مملكة « اكسوم » المستمر على بعض المناطق التى مدت نفوذها اليه .

كما أن تقدم المد العربى على طول الشمال الأفريقى ، قد ضغط على بعض القبائل البربرية ، واضطرها الى التقدم فى الجنوب والى الوصول الى أجزاء متعددة من أفريقية ، ولقد عرفت « كانم » بعض هذه الجماعات ، وتلقتها بحب وبفهم .

كما أن الضغوط السياسية قد أرغمت البعض على أن يضرب فى أفريقية ، ولقد كان من تلك الجماعات الأميون ، ثم بعض فقهاء المذهب المالكى الذين ضاقت عليهم القاهرة حين قدمت اليها دولة الفاطميين الشيعية .. وقد وجد بعض هؤلاء فى « كانم » المستقر ، والجو الصحى الذى يمكن أن يتنفسوا فيه بعمق بعيدا عن الرقابة الحكومية ، والتعصب المذهبى .

ولقد كانت هجرة « السساو » الى تلك المنطقة من الهجرات التى اثرت فى البلاد ، وجددت طاقتها ، وفتحت عينيها على مفاهيم

جديدة ، ذلك لأن هؤلاء « الساو » كانوا الى جانب اجادتهم للرعى ، يحسنون بناء المدن ، ويبدعون فى صناعات التماثيل البرونية ، وهم القوم الذى قيل عنهم : ان الناظر الى عيونهم يكون كمن ينظر الى فرص الشمس الملتهب !

أما قمة هذه الهجرات ، فلقد كانت بحق هجرة الأسر السيفية « التى تنتسب الى سيف بن ذى يزن » من الشمال فقد استطاعت الوقوف على قمة الأحداث هناك ، وأن تنتهج أسلوبا جديدا من أساليب الحكم ، يتمثل فى تجميع الحكم فى يد مجلس شورى مكون من اثنى عشر شخصا من الأسرة الحاكمة ، ثم يرفع المجلس هذه القضايا بدوره الى السلطان .

ولقد ازدهرت الحياة هناك ، وسرت فيها النضارة ، حين أسلم السلطان « حمى جلمى » فى القرن الحادى عشر ، وحين أقبل الناس على الاسلام بعمق .. فبعد أن كانت الحياة من حولهم راكدة وبعد أن كان « الانسان » يعيش ثم يموت بلا هدف ولا طموح ولا معانقة للحياة ، رأينا الاسلام يبعث فيهم قوة جديدة ، ويحركهم الى حد التوتر ، وينفذ بهم من السطح الى العمق ، ثم يشدهم فى آخر الأمر من الخوف الى الحركة من حولهم ، ومن الصمت الذى يخيم عليهم الى « الحركة العاقلة » التى يخلقها الاسلام ، والتى بها يمكن للانسان أن يتعرف على نفسه وعلى الحياة من حوله ، وخلق نوع من الانسجام بينه وبين العصر .

وقد حملتهم هذه الموجة الواعية الجديدة الى أن يدفعوا بحدود بلادهم الى مصر والنوبه ، والى أن يمدوا خطوطهم الى حوض النيجر غربا ، وأن يثبتوا هذه الخطوط فى بعض ولايات « الحوصة » ، ثم يكشفوا الصحراء من حولهم ، ويدفعوا بالاسلام الى داخلها .

وقد تعمق هذا الاسلام فى نفوسهم الى حد أن أم السلطان « برى الأول » قد أودعته السجن ، لأنه اكتفى بسجن بعض

اللصوص ، ولم يطبق عليهم قصاص السرقة المقرر فى الاسلام •
كما تعمق أكثر فى نفوسهم حين عرفوه « جغرافيا » بالخروج من اقليميتهم الضيقة ولقد كان الحج هو الذى أعطاهم هذه النافذة ، فمن خلاله اطلعوا على هذا العالم الكبير الذى يأخذ به ، وعلى هذه الأفكار الجديدة التى تنبع من جوهره •

ومن هنا كان اتصالهم الجديد بالحفصيين فى تونس ، وبالمراكز الثقافية فى المغرب ، وكانوا وتمبكتو ، وجنى ، وجاو وببغداد أيضا •

ولقد كانت صلتهم بمصر كأقوى ماتكون عليه الصلات ، فقد توسعت دولة المماليك فى الاتصال بهذه الدولة ، ونجحت فى أن تكون « عملية تجارية » بينها وبين بعض البلاد الأوروبية ،كما نجحت فى أن تدفع الى « كانم » بعدد وفير من التجار المصريين •

ولقد أقبل فى هذه الفترة عدد كبير من التجار الكانميين على مصر وكانت سوق « قوص » أهم نقاط تجمعهم ، وقد بلغ بهم التأثير الى حد انشائهم بمصر مدرسة لتعليم مذهب الامام مالك •

كما كان لليبيا تأثير كبير فى هذه البلاد فقد كان هنا طريق تجارى يصل بينها وبين « فزان »

وفى ضوء هذا نرى أن التجار قد عبدوا الطريق الى الثقافة فطـــريقهم الى مصر كان يحمل كثيرا ممن تعلموا فى الأزهر ، وطريقهم الى ليبيا حمل اليهم بعض المظاهر الموجودة هناك ، وفى مقدمتها فى نهاية الأمر التأثر بالطريقة السنوسية ، وطريقهـــم التجارى الى النيل والذى كان يجاهد حتى يصل الى المحيط الهندى كان لايعدم التأثير فى كانم ببعض ما شوهـــد فى هذه المنطقـــة الممتدة شرقا •

ولقد تحمسوا للاسلام بدورهم ، وعملوا على أن يدفعوا به الى قلوب جيرانهم ، وبخاصة قبائل الصحراء ، ولقد عرفوا « الاسلام

السنى » عن طريق مذهب الامام مالك والتحمس له ، الى حد اقامة مدرسة باسمه خارج بلادهم كما سبق أن ذكرنا .

فاذا عرفنا أن « كانم » كانت فقيرة اقتصاديا ، وكان الذهب الذى يمثل « العصب الاقتصادى » للدول المعاصرة لها فى أفريقية لايوجد بها ، وأنها كانت تعتمد على عملية « التسويق » ، وصناعة بعض المنتجات الصغيرة .. اذا عرفنا ذلك أدركنا أنها قامت بدور أكبر من طاقتها !

والوثيقة التى يمكن أن تعطينا اقتصادياتها هو ماجاء عنها فى كتاب « صبح الأعشى » للقلقشندى ، فهو يقول عنها :

« بلادهم بين أفريقية وبرقة ، ممتدة فى الجنوب الى سمت الغرب الأوسط ، وهى بلاد قحط وشظف ، وسوء مزاج مستول عليها ، وغالب عيشهم الأرز ، والقمح ، والذرة ، وببلادهم التين ، والليمون ، واللفت ، والباذنجان ، والرطب ، ومعاملتهم بقماش ينسج عندهم اسمه دندى .. ويتعاملون أيضا بالودع ، والخرز ، والنحاس المكسور ، والورق .

وتبدأ هذه المملكة من جهة مصر بلدة اسمها « دلا » وآخرها طولا بلدة اسمها « كاكا » وبينهما نحو ثلاثة أشهر »

وقد عاشت هذه الدولة فترة زاهية ، ولكن التفكك قد أخذ يصيبها ، وبخاصة حينما وقع الصراع بين الأسرة والارستقراطية الحاكمة بحيث أصبحت معزولة تماما عن الشعب وحين دخلت فى صراع مسلح مع « الساو » ، ثم مع قوة كبيرة هى قوة «البولالا» الذين كانوا يسكنون عند بحيرة « فيتزى » ، والذين كانوا من القوة بحيث استطاعوا اضعاف الدولة ، وارغامها على نقل عاصمتها الى أكثر من مكان .

بحيث يمكن القول بأن « كانم » قد ضعفت تماما فى القرن الثالث عشر ، ومع أنها تفتت بعد ذلك الى دويلات ، الا أن القرن

السابع عشر قد طلع عليها وهى « مقاطعة صغيرة » داخل قوة كبرى هى دولة « البرنو »

الا أن مايحمد لها أنها استطاعت أن « تنبض » فترة من الزمن بقيم جديدة ، رغم ضعف اقتصادياتها ورغم قسوة الحيـاة من حولها !

ولعل مايعزى عنها أنها كانت ((**زهرة برية**))

تألقت فى الصحراء تحت العواصف

ومع ذلك استطاعت أن تمنح الحياة شيئا

شيئا جديدا !

غـــانـــة

أطلق هذا الاسم فى الماضى على مملكة قديمة تتردد بين أعالى نهر النيجر ، ونهر السـنغال ، كما أن الجغـرافيين يطلقونه على جميع ساحل غرب افريقية من جنوب السنغال الى مصب الكونغو وهكذا نرى أن « غانة الحديثة » لا تقع بحدودها فى غانة القديمة

ولكن هذا يوضح لنا ما كان لهذه الدولة من أثر فى التاريخ القومى فى جميع غرب افريقية ، مما يدعو جمهورية غانة الحديثة ــ التى كانت تسمى من قبل ساحل الذهب ــ الى أن تطلق على نفسها هذا الاسم القديم الذى يعيش بأمجاده الزاهية ، وبمدلوله العاطفى فى نفوس السكان فى غرب افريقية ، وهـذا يوضح لنا أن اسم غانة اسم وطنى ، ينظر اليه الأفريقيون على أنه فترة ذهبية مرت بحياتهم قبل أن يكون مداولا جغرافيا محددا .

وقد وضح هـــذه الفكرة « كوامى نكرومه » حين وقف فى المجلس التشريعى « لساحل الذهب » ، يطالب بالاستقلال لبلاده ، ومقدما المفاخر التى مرت بافريقية فى ظلال مملكة غانة القديمة ، ومتحديا فى الوقت نفسه الانجليز فقد قال :

« ان أجـدادنا قد تمـكنوا منـذ قرون طويلة من اقامـة امبراطورية ضخمة قبل أن تكون لبريطانيا أية أهمية فى الوجود ، وقبـل أن تلتقى قبائلهـا فى شـعب واحد ، وقـد ظلت هـذه الامبراطورية التى قامت على سواعد أجدادنا شامخة تظلها أجواء الحضارة من تمبكتو الى باماكو الى شاطىء المحيط .

وقد عاش بها العلماء والفقهاء فى جو من الاحترام والتبجيل ، ومن حول هؤلاء العلماء والفقهاء ، كان الشعب الغانى يغدو ويروح فى أردية المخمل والحرير التى كان يصنعها بيديه ، كما كان يقدم من الذهب والجوهر والفضة والنحاس أفانين وأفانين .

وهذا ما يجعلنا نزهو باسم « غانة » لا لأنه اسم شاعرى ، وانما لأنه مازال مصدر الوحى والالهام لما نتطلع اليه من حضارة وتقدم فى مستقبل أيامنا » .

وقد كان السبب في ازدهار هذه الدولة وبقائها أكبر مدة ممكنة اكثر من تلك الدول التى كانت تلمع ثم تنطفىء .. أنها قامت على أسس اقتصادية سليمة ، وعلى وضع يدها على شبكة تجارية كبيرة ، فقد عرفت استخدام الحديد والاستفادة منه ، وعرفت كيف تتحكم فى مصادر الملح وتصريفه الى الجنوب ، كما عرفت كيف تصدر الذهب من الجنوب الى الشمال ، بالاضافة الى التحكم فى تجارة النحاس وطرق توزيعه .

وقد كان لشعب غانة طريقة غريبة فى عملية التبادل التجارى ذلك لأن التجار كانوا يقدمون على البلد الذى يريدون الاتجار معه ثم يعرضون سلعهم على شاطىء الأنهار ، ثم يتوارون عن الأعين فترة من الزمن ليتيحوا للوطنيين فرصة رؤية السلع ، وما هى الا فترة حتى يظهر الوطنيون ، فاذا ما أرادوا شراء شىء وضعوا بجانبه قيمته ذهبا ثم ينسحبون بدورهم ليظهر الغانيون ، فاذا رضوا عن كميات الذهب المقدمة حملوها معهم ، واذا لم يرضوا عن مقدار الذهب اختفوا مرة أخرى حتى تزاد الكمية ، وهكذا يظهرون ويختفون حتى يرضون تماما عما يقدم لهم ، ثم يعودون الى بلادهم بهذه القوة الاقتصادية الكبيرة من الذهب ، والتى كانت توجد فى تلك المنطقة التى تسمى « غينيا » الآن .

وقد ساعد على ازدهار التجارة بالطبع ، وقوع غانة فى موقع ممتاز بين جيرانها عند أطراف الصحراء الكبرى .

أما التكوين البشرى لهذه الدولة فيرجع الى هجرات المغاربة من الشمال الأفريقى الى هذه الرقعة من الأرض فى القرن الثنى الميلادى ، وقد كان توغل هؤلاء المغاربة فى أول أمره توغلا سلميا لا يقوم على ضغط أو حرب ، وانما يقوم على عملية تقاطر من الشمال ، وعملية امتصاص لهم من الوطنيين ، وقد كان فى مقدمة الذين رحبوا بهؤلاء المغاربة شعوب الماندى Meande وشعوب السوننكى Soninke على أنهم سرعان ما اختلطوا بالسكان وصاهروهم ، وقدموا لهم تجاربهم فى الحياة ، وأطاعوهم على نبض الحياة فى الشمال ، وبمرور الوقت استطاعوا أن يؤكدوا لأنفسهم ، ثم يتولون أمور الحكم من مدينة « أوكور » .

ولكن « السوننكى » استطاعوا أخيرا انتزاع الحكم من أيديهم ، مما اضطرهم الى أن يهاجروا الى بلاد « التكرور » وأن يعيشوا بين اهلها من التكلور ، وبين جيرانهم من الولوف ، والسيرير وقد استطاعوا أن يعمقوا علاقاتهم « بالتكاور » الذين كانوا يمثلون الطبقة الحاكمة ، وأن يمثلوا معهم الدور الذى مثلوه من قبل مع الماندى ، والسوننكى ، مما جعلهم أخيرا ينساموا الأمور من التكاور ، ويصبحوا القوة المحركة للتاريخ هناك ، رغم عودة « التكاور » الى الثورة عليهم فى القرن الحادى عشر .

ولكن بمرور الزمن أصبح من الحتمى ضياع هؤلاء المهاجرين الشماليين البيض فى هذا المحيط الأسود ، وأن يصبحوا فى الوقت نفسه شكلا من أشكاله لا طبقة متميزة عنه .

وقد ظلت أمور البلاد بأيدى أهلها ، حتى كان احتكاك هذه الدولة بجيرانها من البربر ، وحتى كان الموقف الموحد من قبيلتى لمتونة وجدالة ، لضرب حركة التجارة فى غانة ، ولفتح هذه الدولة أمام القوى الاسلامية التى تمثلها .

وقد تم لهذه القوة الجديدة ما أرادت ، ذلك لأن فقيه لمتونة الداعية « عبدالله بن ياسين » وضع فى مخططه نشر الاسلام فى

الممالك الزنجية التى تحيط به ، والترويج بحماس لمذهب الامام مالك فى هذه المنطقة من غرب افريقية ، وكان أن دعا الناس من حوله لنشر كلمة الله ، وللاختلاط بالوطنيين ، ولاعطائهم نموذجا تطبيقيا من السلوك ، كدليل عملى على سماحة المسلم ، وصدقه ، وحبه للسلام ، والعمل من أجل رخاء البشرية .

وبفضل هذا أقبل الوطنيـون على الدخـول فى الاسـلام ، واصبحت المساجد كالرايات التى تتقدم دائما ، والتى تمثل فى الوقت ذاته الحدود السياسية لتقدم الاسلام فى افريقية ، وهكذا انتشر الاسلام فى هذه البقعة كما لم ينتشر من قبل ، وما أسرع ما كان يحتل النفوس قبل الأرض بسماحته ، وبساطته ، وملائمته لاحتياجات الانسان .

ولكن هذا التقدم السلمى سرعان ما تلاه تقدم حربى من دولة « المرابطين » ، وقد كانت ذروة هذا التقدم الحربى تغلغل قوات « يوسف بن تاشفين » فى الدولة ، واحداث تخريب بها ، وقد كتب « ابن خلدون » عن عملية التخريب هذه ، ولكنه أكد أن الحياة عادت بعد ذلك للدولة ، بعد أن أعطيت البلاد الصـبغة الرسمية الاسلامية .

على أن الأمور آلت تماما الى « السوسى » ولكنها ما لبثت أن خرجت من أيديهـم امام التفوق الحـربى والاقتصادى لدولة « مالى » ، ويعتبر استيلاء « الأكوى كيتا » على عاصمة غانا عام ١٢٤٠ تأكيدا رسميا لذبول هذه الدولة ، واستعدادها للاندماج فى اية قوة أخرى جديدة .

ومهما يـكن من شىء فان غانة تعتبر فى مقـدمة الدول التى اهتم بها الرحالة والمؤرخـون المسلمون فقد اهتـم بها البكرى ، والفزاوى ، وابن بطوطة ، وابن خلدون ، وحددها الخوارزمى فى خريطته التى وضعها للعـالم الأفريقى ، كما أعطاهـا ابن حوقد اهتماما خاصا ، ومن قوله عنها فى كتاب المسالك والممالك :

« وملك أودغست هذا يخالط ملك غانة ، وغانة أيسر من على وجه الأرض من ملوكها ، بما لديه من الأموال المدخرة من التبر المثار على قديم الأيام ، للمتقدمين من ملوكهم وله ، ويهادى صاحب كوغة من صاحب غانة فى اليسار وحسن الحال ، ويهادونه وحاجتهم الى ملوك أودغست ماسة من أجل الملح الخارج اليهم من ناحية الاسلام ، فانه لا قوام لهم الا به ، وربما بلغ الحمل من الملح فى دواخل بلد السودان وأقاصيه ، ما بين مائتين الى ثلثمائة دينار ..

وهكذا نرى أن غانة القديمة بملوكها الوطنيين ، وبالمسلمين فيها ، لا تزال حلما جميلا يعيش فى نفوس القادة والشعوب فى افريقية ، وبخاصة فى منطقة الغرب منها ، وانهم حين يفاخرون الغرب ، سرعان ما تنتصب أمام أعينهم تلك المآذن الجميلة التى غطت هذه المنطقة باسم الله ، وسرعان ما تضىء أيامهم كذلك مناظر العلماء والفقهاء وهم يوزعون نور الله من أفواههم باسم الاسلام .

مـــالى

حين كانت دولة « المرابطين » قد أخذت فى التفكك ، وأخـذ بريقها فى الانطفاء شيئا فشيئا ، نرى أن مملكة « صوصو » تنتهز هذه الفرصة ، وتعمل على تقوية نفسها ، حتى لنراها تضع يدها على جزء كبير من امبراطورية « غانة » فى عام ١٢٠٣ ، مما اضـطر المسلمين هناك الى الرحيل عن « غانة » ، وانشاء مركز تجارى لهم فى مدينة « ولاتة » ٠٠ وعلى كل فقد بلغت هذه الدولة قمة ازدهارها فى عهد الملك « سمنجور » عام ١٢٠٧ ٠

ولما كانت الوثنية هى المسيطرة على هذه الدولة ، فانا نراهـا تقف دون المد الاسلامى اليها ٠

وكما وقفت « غانة » من قبل فى وجه المرابطين ، دون التقـدم فى الجنوب الافريقى ٠٠ فانا نرى هذه الدولة كذلك تجمد الأوضاع السابقة بالنسبة للتقدم الاسلامى ، وقد كان معنى هذا انتصـار الوثنية فى هذه المنطقة ٠

على أن هذا لم يدم طويلا ، فقد أظهرت قوة جديدة فى الجنوب من مملكة « كانياجا » هى قوة « الماندنجو » فى « كانجابا » الذين كانوا قد دخلوا الاسلام فى أوائل القرن الثالث عشر ٠

والماندنجو ٠٠ هم ما يسمون بلغة البربر « مليت » وباللغـة الحوصية « وانجارا » وباللغة العربية « مليل »، كما كان يسميهـم

المصريون « التكرور » ، أما اللغة الفلانية فقد اطلقت عليهم اسم مالى ٠٠ ومن هذا الاسم عرف العالم الخارجى هذه البلاد ، التى تزدهر الآن فى غرب افريقية على يد « **موديبوكيتا** » ٠

وقد أكدت هذه المملكة نفسها حين تولى الملك « ساندياتا » شئونها عام ٦٢٨ هـ - ١٢٣٠ م ، فقد تفوق حربيا على جيرانه ، واستطاع بفضل هذا التفوق أن يقضى على الملك « سومنجورو » ملك « كانياجا » ، وبسقوط هذا الملك أصبحت « مالى » هى القوة الحقيقية فى غرب افريقية ٠

على أنا لا نرى « مالى » تقف عند حد الاستيلاء على مملكة « كانياجا » والبلاد التى وضعت عليها كانياجا يدها من غانة ٠٠ لأنا نراها تسرع فتسترد ما لم تضع عليه هذه المملكة يدها من غانة، كما نراها تستولى بعد ذلك على « كوكو » وعلى « التكارو » وعلى أرض « الوانجارا » وعلى « بامبول » وعلى « بندو » وعلى « ولاته » و « تمبكتو » و « جوا » ٠

وبضم هذه الأجزاء اليها نراها تصبح أقوى مركز اقتصادى فى فى غرب افريقية ، فقد أصبحت تتحكم فى تجارة المنطقة ، وتضع يدها على مناجم الذهب التى كانت تغص بها وانجارا ، وبهذا تكون هذه المملكة قد توفرت لها مقومات الملك ، وأصبحت مستقرة اقتصاديا ٠

على أنها لا تكتفى بهذا ، وانما نراها تبحث عن « نظرية » تتصرف من خلالها ، وتحدد أهدافها فى ضوئها ، فقد كانت انتصاراتها السابقة يغلب عليها الطابع الحربى المتفوق ، أما الآن فهى تريد أن تحتمى ، وتتعمق حياتها من خلال فكر جديد ٠

ولم يطل بحث الناس طويلا ، لأنهم سرعان ما اتخذوا الاسلام هدفا ، يعملون على أن يأخذوا أنفسهم بسلوكه ، ويتصرفوا من داخل

تعاليمه ، فمع أن هذا الاسلام قد بدأ يدخل حياتهم فى أوائل القرن الثالث عشر ، الا أنهم لا يكتفون الآن بالمظهر الخارجى للاسلام ، وانما يريدون القوة الروحية التى تحرك وجودهم ، والتى لا ينبغى أن يحيطوها بحيث تختفى على الآخرين ، لأنهم يريدون لها فى الواقع أن تمس قلوب جيرانهم فتزدهر ، كما ازدهر كل شئ فى بلادهم باسم هذا الدين الجديد الوافد عليهم ٠

وسرعان ما يضعون أنفسهم فى خدمة هذا الاسلام وفهمه وتعمقه ، وقد تم هذا بصورة تكاد تكون حاسمة فى عصر «منساعلا» الذى تولى الملك بعد موت أبيه « سنديانا » عام ٦٥٣ هـ ــ ١٢٥٥ م ثم فى عهد سبعة ملوك تراوحوا حكم البلاد من بعده .

وقد ربط هؤلاء الملوك أنفسهم بالبلاد الاسلامية الأخرى، وكانت مواسم الحج تشبه « بعثات » لهؤلاء الملوك، يطلعون فيها على الجديد من أساليب الحكم والحياة فى البلاد الاسلامية، ثم يعودون فيطبقونها فى بلادهم بحب وحماس ٠

وقد كانت مصر ترحب بهؤلاء الملوك ، فقد كانوا يتبادلون الرسائل مع حكامها ، ويعرضون فيها أشياء كثيرة من أساليب الحياة فى بلادهم ٠

وما كان أسعد « الظاهر بيبرس » حين تلقى فى القاهرة رسالة تفيد أن موكب « منساعلا » يصل الى القاهرة فى موسم الحج ٠ ٠ وقد احتشدت القاهرة فى هذه الفترة لرؤية الموكب الذى لم يكن لها به عهد من قبل هؤلاء الملوك الافريقيين لروعته ، وكثرة الناس به ٠

وقد رحب « الظاهر بيبرس » بمنساعلا أجمل ترحيب ، واستقبله بما يليق به ، وأنزله فى قصره معززا مكرما ٠

أما الموكب الذى أطنب فى ذكره المؤرخون ، فهو هذا الموكب الذى قدم فيه « منساموسى » فى عهد « الناصر محمد » ، فقد تبادل

فيه الحاكمان الهدايا ، وعقدا معا ما يمكن تسميته بمعاهدة ثقافية بين البلدين .

على أن الصلات لم تقف عند حد هذا اللقاء السريع الذى يتم فى طريق أهل مالى الى مكة ، لأنا نرى الرسائل تتبادل معهما قبل الحج وبعده ، ثم ان هذا التبادل كان لا يقف عند حدود التبادل السياسى بين الحاكمين ، وانما نراه عميقا وواعيا بين علماء هذا العصر ، مثل هذا التبادل الذى كان بين جلال الدين السيوطى فى مصر ، وشمس الدين بن محمد بن المتولى فى مالى بصفة خاصة ، وبين علماء القاهرة وعلماء تمبكتو بصفة عامة .

وفى الوقت نفسه لم تنس « مالى » الاتصال ببلاد الحجاز ، والعراق ، والشام ، والمغرب ، ولعل هذا ما جدد لها نشاطها ، وجعلها على وعى بنبض الحياة فى الدول الاسلامية ومحاولة الانتفاع بما يلائم ظروفها مما تجده عند هذه الدول التى تحتك بها .

والصورة التى رسمها المؤرخون المسلمون تعتبر وثيقة شرف لهذه المملكة .

فالعمرى .. يذكر أن « منساموسى » قد نزل أرض مصر فى عدد وفير من أهالى مالى يقدرون بالآلاف ، وأنه كان يمشى محروسا بخمسة رجال يحملون أسلحة من الذهب الخالص ، وأنه كان يحمل نفقات رحلته بما يقدر بثمانين حمل جمل من الذهب الخالص .

وابن بطوطة .. يضيف جديدا الى هذه المملكة حين يصف قصر السلطان المغشى بصفائح الذهب والفضة ، ومظاهر الاحتفاء بمقدمه ، وبخاصة فى أيام الأعياد .

ثم يقدم لنا الشعب فيذكر أن العدل والأمانة يسودان كل أفراده ، وأن الأمن مستتب فى كافة أجزاء المملكة ، وأنه مولع بالرقص والموسيقى ، وأن البلاد مليئة بالمكتبات الزاخرة ، ومضيئة

بالعلماء الذين يلاقون التكريم فى كل مكان حلوا به ، وأن من ولعهم بالقرآن الكريم أن من يقصر من الصغار فى حفظه ، يقيد بالحديد ، ولن ترفع عنه هذه القيود الا اذا أضاء القرآن نفسه ، وتدفق على لســـانه ..

والقلقشندى .. فى صبح الأعشى يذكر أن السحر منتشر فى البلاد ، وأنه يكثر بها مرض النوم ، وأن الزى السائد هناك يشبه زى المغـــاربة ، وأنهم يتعاملون بالودع ، ويتقايضون على الســـلع بالذهب ، وأن عساكر السلطان يبلغون مائة ألف رجـــل ، يلبس الفرسان منهم أساور من الذهب ، فاذا ارتفعت رتبتهـــم ارتدوا ملابس فضفاضة من أسفل وأكمامها ضيقة .

تلك هى اللمسات التى أضافها هؤلاء الرحالة الى هـــذه المملكة التى كانت تضيء بالاسلام فى غرب القارة الافريقيـــة ، والتى ظلت فترة كبيرة تحمل عبء توصيل الاسلام الى البلاد المجاورة ، أوالتى ضمتها الى مملكتها .

ولكن حماس الناس هناك فتر بعد عهد « منساموسى » ، فقـــد رغبوا فى الراحة ، وعدم اقتحام المخاطر من أجل دفع الاسلام الى خارج مملكتهم ، ثم قام بينهم الخلاف على الملك .

على أن السبب الحقيقى لتدهور هذه الدولة أنه لم يعد لديهـــا « هدف » محدد تسعى اليه ، وتتحرك باسمه فى جسارة ، ومن هنا كان لا بد لهذه الدولة أن تتصدع من الداخل ، وأن يتخاطفهـــــا الجيران ، ثم تستحيل الى امارات صغيرة متناحرة .

وقد بلغ بهم الضعف حدا جعلهم يستعينون بالبرتغاليين عـــلى اخوان لهم فى القرن السادس عشر .

وكان لا بد لهذه المملكة أن تتعرى من أقاليمهـــا الخمس ، ثم تستحيل فى القرن السابع عشر الى امارة صغيرة فى « كانجابا » .

لقد تحركت من « كانجايا » باسم فكرة وتحت شعار هــــادف ـ مهمـــا تكن هذه الفكرة وهذا الشعـــار غائما فى أول الأمر ـ وها هى تعود ثانية الى « كانجايا » حينما لم تعد لهـــا فكرة ، ولم يصبح لها هدف ، بعد أن كانت امبراطورية كبيرة وصفهـــا « ابن خرداذبة » فى « ممالك الأبصار » بأن طولها كان أربعة أشهر .

وأن عرضها كان أربعة أشهر .

ولعل ما يعزينا عنها فى الماضى أنها تأخذ الآن دورا ثوريا قياديا فى غرب القارة الافريقية بعد أن تعــــدلت حدودها فى العـــــام الحديث .

صنغاى

مما لا شك فيه أن « البربر » قد أدوا للاسلام خدمات كبيرة فى افريقية ، فقد كان من عادتهم التنقل من مكان الى آخر ، كما كان يستهويهم دائما التغلغل الى الجنوب حيث المراعى ، والغابات ، والحياة البسيطة التى لا تختلف فى كثير عن الحياة التى يحيونها فى مناطق نفوذهم .

وتعتبر قبائل « لمطة » المغربية من أوائل القبائل التى تململت فى أوطانها ، ثم تملكتها رغبة فى الترحل بعيدا عن حيث تسكن .

وقد ظلت تسير !

وكلما أوغلت فى السير ، كلما شاقتها المراعى الشاسعة الى أن تتغلغل أكثر من ذى قبل ، وكان أن وجدت نفسها أخيرا على الضفة اليسرى لنهر النيجر الذى يعتبر ثانى الأنهار الأربعة المشهورة فى افريقية :

وهى أنهار : النيل ، والنيجر ، والكونغو ، والسنغال .

وقد كان من الطبيعى أن يشوقهم البقاء بالقرب من هذا النهر الذى يشق مجراه من مسطح جبلى بغينيا مارا بالصحراء الكبرى ، وتمبكتو .. الى أن يصل الى المحيط الأطلسى فى رحلة تقدر بألفين وخمسمائة ميل .

ذلك لأن أكثر الحضارات فى القارة الافريقيـــة تزدهر أكثر ما تزدهر على الأنهار ، لأنها تشد دائما اليها السكان ، وتمنحهـــم الرزق ، والحياة ، والعمق النفسى ٠

ومن هذه المنطقة نرى هذه القبائل تؤكد ذاتهـــا ، وتفرض تقاليدها على الحياة من حولها ، ثم تتغلب على المواطنين فى هـــذه المنطقة التى تسمى « صنغاى » ٠

والتى يذكر بعض الباحثين أن هذا الاســـم يرجع الى قبيلة « صنهاجة » العربية التى هاجرت فى وقت مبكر الى افريقية ٠

ومن هذه المنطقة نرى قبائل « لمطة » تسيطر على الحكم هناك من عاصمة لهم تسمى « كوكيا » ، وأنهم قد استطاعوا أن يعيشوا فى رخاء اقتصادى بحكم صلتهم التجارية التى وسعوا شبكتهـــا بحيث أصبحت تضم غانة وتونس ، وبرقة ومصر ٠

فقد ربطها جميعا طريق للقوافل يسمى طريق « تادقلة » الذى لم يقف تأثيره عند حد التبادل التجارى ، وانما سرعان ما تحول الى ما يمكن تسميته بطريق ثقافى يتدفق عليه العلماء الى هـــذا المكان من افريقية ٠

وكما أن هؤلاء الدعاة المسلمين كانوا يجدون ثقة فى التغلغـل الى هذه المناطق المجاورة لنهر النيجر ، فانا نجد المواطنين الافريقيين يستبشرون بمقدمهم ، ويرحبون بهم ، ويسمعون عن هـــذا الدين الجديد الذى لا يتدفق قرآنا وأحاديث من أفواههم فقط ٠٠ وانما يتدفق كذلك منطقا مطهرا ، وسلوكا قويما فى كل ما يأخذون به من سبل الحياة ٠

بحيث لم تمر من القرن الحادى عشر الميلادى سنوات حتى كان الملوك المحليون على هذا الطريق التجارى قد اعتنقوا هـــذا الدين

الجديد، وحملوا أمانته لشعوبهم التى استقبلته هى الأخرى بحماس لا يقل عن حماس ملوكهم له ٠

فقد وجدوا فى الاسلام ما يكرم انسانيتهم ، وما يطهر روحهم، وما يحملهم على التماسك ، والترابط ، وممارسة الحياة فى سلام ، وحب ، وشغف ، بحيث تصبح الحياة فى ظلاله عميقة ، وجديرة بالبقاء فيها ٠

وقد اشتد الحماس للاسلام فى الفترة التى نقلت فيها عاصمة الملك من « كوكيا » الى « جوا » التى تستقر تمـــــاما عند منحنى النهـــر ٠

ومع أن الانتقال كان لأسباب اقتصادية تتعلق بمراكز التجارة الا أن الاسلام كسب عن طريق هذا التجول قلوبا جديدة ونفوسا ظامئة الى المعرفة ٠٠

ومع أن مملكة « مالى » قد تغلبت على هذه المملكة فترة من الزمن الا أن حكام هذه المملكة سرعان ما تخلصوا من هـــذه السيطرة ، ثم عملوا على التوسع غربا فى عهد « سنى على » والذى ما لبث هو الآخر أن وضع يده على « جنى » التى كانت تعتبر من أهم المراكز التجارية فى هذه الفترة ، لأنها كانت تقف على طريق القوافل التى تشق طريقها من قلب القارة الافريقية الى المحيط ذهـــابا وعودة ، والتى اعتبرت كسبا للدعوة الاسلامية كذلك بعد أن أسلم ملكهــا المسمى « كنبرو » فى عام ١٢٠٠ ٠

ثم كان الكسب الآخر حين استولى « سنى على » على تمبكتو ، التى وان كانت تقل فى الأثر التجارى عن « جنى » الا أنها تفوقهــا فى الأثر الثقافى ؛ فقـــد كانت تعتبر جامعة للمســـلمين الذين يرغبون فى الثقافة الاسلامية فى القارة ٠

كما كانت تحتضن كافة القوى الاسلامية التى كانت لا تجـــد الطمأنينة فى أماكنها ، كما حدث لأتباع الطريقة القادرية ...

فحين طردوا من « ولاته » لم يجدوا أمامهـم الا « تمبكتو » ، فقد كانت جديرة يقول صاحب « تاريخ السودان » عنها بأنها :

« ما دنستها عبادة الأوثان ، ولا سجد على أديمهـا قط لغير الرحمن » .

وقد تولى أمور هذه المملكة بعـد « سنى على » وال آخر هو « اسكيا محمد على » الذى كان مشهورا بالتقوى ، وممتلئا بالحماس لنشر الاسلام بين جيرانه .. حتى أنا نراه ما يكاد يعود من مكة بعد أداء فريضة الحج عام ١٩٤٧ .. حتى يأخذ فى ادخال الاسلام الى قلوب « الماندنجو » و « الفلانى » فى الغرب ، وقلوب «الحوصة» فى الشرق ، و « الموسى » فى الجنوب ، و « الطوارق » فى الشمال.

وقد ساعد على هذا أن مملكة « مالى » كانت تأخذ فى الأفول ، ومن هنا استطاع بنجاح أن يملأ الفراغ الذى كانت تملؤه .

وبموت « اسكيا محمد على » نرى أركان هذه المملكة تأخذ فى التصدع ، فقد تآمر عليه أولاده فى آخر حكمه .

ووجد القواد فى هذا النزاع فرصة للسيطرة والتنـازع ، واكتساب المغانم السريعة .

وقد تنبه الى هذا الضعف سـلاطين « مراكش » الذين كانوا يطمحون الى الاستيلاء على مناجم الملح فى « تغزه » ، وعلى منـاجم الذهب التى كانت توجد بوفرة فى أرجاء « صنغاى » .

ومن هنا نراهم يتغلغلون فى البلاد ، ويعملون على قص أطرافها بحيث أصبحنا نراها فى عهد الملك « اسحق » لا تتجـاوز بلاد « وندى » وقد أدى هـذا بطبيعة الحال الى تمرد قبائل الفـلانى ، والبمبارا ، والطوارق .

وهكذا تفككت المملكة من الداخل ، وانتهى نفوذ الأسرة التى كانت تحكم ، وأصبحت لا تعدو غير قبائل متناثرة هنا وهناك .

ومع أنه قد بقيت فلول من المراكشيين يحكمون هناك على عدة مناطق الا أنهم قد ضعفوا بدورهم ، وتركوا الحكم لأهل البلاد ، بل كانوا يدفعون لهم الجزية على بقائهم بينهم .

على أن النهاية لم تكن لهؤلاء المراكشيين فقط ، وانما لمملكة « صنغاى » هى الأخرى ، بحيث يمكن القول انها لم تصبح فى عام ١٧٨٠ الا ذكرى فى نفوس الأفريقيين .

على أن الافريقيين يعتزون بهذه الذكرى ، ويستحضرون بين الوقت والآخر الفترة الذهبية التى عاشتها هذه المملكة فى افريقية، وهناك تفكير الآن فى تحويل اسم « نيجيريا » الى « صنغاء » .

على أن أرق ما تكون هذه الذكرى نراها فى قلوب الأدباء ، حتى أنا نرى القصص الافريقى الحديث « وليم كونتون » فى قصته الطويلة « الافريقى The African » يجرى حوادث قصته فى قرية تسمى « لوكو » بدولة « صنغاى » .

وهكذا نرى الافريقيين يلتفتون الى ما ضيهم اليوم فى حنان وحب ، وحين يلتفتون يبتسم الدمع فى عيونهم ، ويختلط الواقع بالذكرى ، ولا يجدون فى تاريخهم أجمل من تلك الفترات التى قامت فيها دول « باسم الاسلام » .

الحوصة

حينما كسى الاسلام منحنى « النيجر » وجد شعبا من الشعوب القوية ، التى لعبت دورا هاما فى تاريخ الاسلام بنيجيريا ، وهو شعب « الحوصة » الذى يعتبر « مزيجا انسانيا » من قبائل شمالية بربرية ، ملثمة وغير ملثمة .

وقد اندفع الشعب الحوصى ــ أو بعبارة أدق الذى يتكلم لغة الحوصة ــ الى الجنوب تحت الضغوط السياسية ، وبخاصة هذا الضغط الذى أحدثه « انفجار الهلاليين وحلفائهم » فى الشمال .. فقد وجدوا انفسهم مضطرين الى الانسحاب من الشمال ، والتوغل فى الداخل فى تتابع شبه منتظم .

ولقد كان التقدم عشوائيا ، ولا يتبع الا الينابيع التى تعتبر « واحة » بعد السير فى المناطق الشاقة ، ومن هذه المنطقة حدث الامتداد الحوصى الى تلك المنطقة التى تمثل الآن شمال نيجيريا .

ولقد كان التقدم عشوائيا ، ولا يتبع الا هدى الفطرة ، والسير الى الاماكن المعيشية ، أو التى تستطيع أن توفر لهم اسباب الرزق ، ولكن عملية « التقاطر » المستمرة ظلت الى الحد الذى تكونت فيه سبع ولايات كبيرة هى التى عرفها التاريخ باسم كانو ، وكتسينا ، ورانو ، وزاريا ، ودورا ، وجبير ، وزنفارا .

وكانت كل ولاية مستقلة عن الولاية الاخرى الى حد الانعزال التام الذى كان يمكن أن « يكلسها » ويعزلها تماما عن الحياة ،

لولا هذا التصادم المستمر العنيف الذى كان يدور بين بعضهـــا بعضا ، والذى كان يطلع كل جانب على ما عليه الجانب الآخر من مهارة فى فنون القتال فى كثير من الاحيان ، وفى فنون الســـــلام فى بعض الأحيان .

وقد دعا كل هذا كل ولاية الى أن تستقل بنفسهـــا ، وأن تمارس حياتها الرتيبة بما يشبه الملل ، ثم أن تزيد العــــزلة النفسية المضروبة عليها بعزلة أخرى تقضى بأن تحاط كل ولاية بسور مرتفع ، وبخندق كبير ممتلىء بالماء ، حتى تظل دائما على أمل أنها لن تقع فى أيدى جيرانها .

وفى ضوء هذا يمكن أن يقال أنها عاشت فى قلاع محصنة ، وانها وقفت تصد عنها الاسلام الذى أخذ « ينقر » على صدرها من « برنو » ومن « مالى » ومن « حوض النيجر » .

وقد كان يمكن أن تعيش هكذا فترة كبيرة من الزمن ، لولا أن الاسلام عرف كيف ينظمها من جديد ، وعرف كيف يضــع السلام والطمأنينة والأمل .. مكان الضياع والقلق والتوتر .

كما عرف أخيرا كيف يزرعها ((**بالاسلام الأخضر**)) ، وقد كان الحصاد الذى جنته هذه الولايات هو الحياة كما يجب أن تعاش، والاحساس بها وبجيرانها الى حد أن المسلم كان يعتـــبر نفسه مسئولا عن العالم كله .

ومما لا شك فيه أن الاسلام كان بذورا صــــغيرة فى قلوب الذين هاجروا من الشمال أول مرة ، وأن سيقان هذه البــــذور قد حملت أوراقا خضراء قدمت اليهــــا من كانم ، وبـــرنو فى الشرق ، ومن مالى فى الغرب .. بالاضافة الى أن الطـــريق الشمالى كان مفتوحا دائما أمام المسلمين من المغاربة ، مما يمكن القول بحق : انهم استطاعوا تتويج هذه السيقان بثمار مضيئة ونافعـــة .

على أن مما لا شك فيه أن القوة التى دفعت بالإسلام دفعا الى هذه الولايات ، كانت ازدياد نفوذ دولة « صنغاى » وتمكنهـــا من وضع يدها ، وفكرها على هذه الولايات بعمق وفهم .

مما يمكن القول معه .. بأن ولايات « الحوصة » فى القرن الخامس عشر كانت قد تحددت شخصيتها ، وأصبحت تنظر الى الحياة نظرة جديدة ، من واقع فهمها للاسلام .

ولقد كانت « كانو » و « كتسينا » من المراكز الثقافية الهامة فى افريقية .

كما عرفت « كتسينا » الامام « جلال الدين السـيوطى » محاضرا ومفقها فى الدين ، ومقربا الى أميرها .

ومع أن هذه الامارات تبعت لفترة قصيرة دولة برنو ـ ماعدا نوبى فى الجنوب ـ الا أن هذه التبعية كانت سطحية ، وغـير ضاربة الجذور فى أعماق البلاد .

وظلت هذه الولايات تعيش فى هذه الخطوط الضيقة الى أن تمكن شعب « الفلاتة » المسلم من التغلغل فيها ، وبخاصة فى ولاية « جوبير » .

وقد ظهر نفوذهم حينما ظهر من بينهم الداعية الاسـلامى الكبير **« عثمان بن فوديو »** .

ولكن أمير « جوبير » تنبه الى هذا الخطر ، وعقد حلفا مع بقية الولايات الاخرى ضد شعب « الفلاتة » ـ الذى كان يستعد تاريخيا لأخذ دوره ـ ومع أن الشيخ عثمان بن فوديو حـاول تحطيم هذا الحلف فى أول ظهوره ، الا أنه لم يستطع .

ولكن قواه الحقيقية التى تتمثل فى « الفلاتة » الذين تسربوا الى كيان « الحوصة » ، والى كثير من المسلمين الحوصيين ..

تمكنت أخيرا من الالتفاف حوله ، ثم عملت فى أناة وصبر عـــلى تقويض البلاد من الداخل ، مما أصبح الحلف معه مجرد اتفاق زائف بين الأمراء ضد رغبات الشعب .

وقد ساعد هـــــذا على سقوط « كتسينا » و « كبى » و « دوارا » و « كانو » فى يد قوة الفلاتة فى عام ١٨٠٥ ،ولكن امارات الحوصـــة لم تسقط تماما الا بمقتـــل أمير « جوبير » فى عام ١٨٠٨

وبهذا يكون الاسلام قد انتصر تماما فى امارات الحوصة .

وبانتصاره تتم وحدة الحوصة والفلاتة على الطريق الكبير للاسلام فى افريقية .

الفلان

اذا كان المؤرخون قد اختلفوا حول أصـــل الفلانيين ، فان هناك ما يشبه الاجماع على انهم قدموا من « صـــعيد مصر » بالرغم من القول بأنهم من أصل هندى ، أو فينيقى ، أو يهودى ، أو مصرى .

ولعل القول بأنهم من صعيد مصر يدل دلالة واضحة على أنهم كسبوا أشياء كثيرة من مصر ، فالذين كتبوا عنهم يوردون فيما يكتبون ـ دون اقصد ـ ملامح نفسية واجتماعية ، تشـبهه من قريب أو بعيدتلك الملامح الموجودة فى مصر .

فهم يذكرون فيما يذكرون أنهم قوم مسالمون ، هادئون ، بارعون فى زراعة القطن والقمح ، كرماء متعاطفون ، يشبهـــون التماثيل فى مصر القديمة .

ومهما يكن من شيء فانهم بعد خروجهم من مصر واصـلوا السير فى الشمال الافريقى ، ثم اصطدموا بالمحيـــط الاطلسى ، ثم كان انتشارهم على هيئـة مروحة فى الغرب الافـريقى ... وأن كانت يد هذه المروحة كانت تتمثل فى « نهر الجمبيا » ثم بعد ذلك فى « نهر النيجر » .

وقد عرفوا التغلغل السلمى فى كافة تقدمهم ، وكان هـذا التغلغل كأوضح ما يكون فى امارات « الحوصة » !! ذلك لأنه لم

تكن هناك « نظرية » تحكم حيـــاتهم ، أو « حركة قومية » تلم شتاتهم .

كما أنهم لم يكونوا يطلبون الا ان يعاشروا الناس بالحسنى ، وأن يسهموا معهم فى الحياة كأبسط ما تكون عليه الحياة .

وقد استمرت حيـــاتهم — بين الزراعة والرعى — وظلت أرواحهم تعيش على تلك الاضواء القليلة التى أشعلها الايمــان فى نفوسهم ، وكلما كانت معرفتهم به تكثر ، كلما كانوا ينعمــون « بوضوح الرؤية » للحياة ولانفسهم .

وقد بدأوا يشعرون بالتكتل حين وجدوا تقاطرا جــديدا وغزيرا من القبائل المنتشرة على الامارات الحوصية .

وكان من الطبيعى أن ينعطفوا اليهم ، وأن يقــدموا لهم المساعدات بحب ، وأن يبرزوا « كنواة قومية » فى امارة « جوبير » وفى أمارة « برنو » مما ترتب غليه الاصطدام بالقوى الحاكمة .

وفى ضوء هذا يمكن القول بأن القرن الثامن عشر قد جاء وهم قوة كبيرة يخشى خطرها ، وأن كل ما كانوا يحتاجون اليه هــو « الزعيم » الذى يقود خطواتهم ، ويطهر عقيدتهم من المعوقات التى علقت بها ، ثم يدفع بهم فى آخر الأمر الى كافة المنطقة كغزاة بالسلاح وبالكلمة .

وقد توافر لهم هذا على يد الشيخ « عثمان بن فوديو » بعد قدومه من الحج ، ذلك لأنه وهو يقيــم بينهم لم يكن ير شيئا محددا فى نفسه .. ولكنه حين ذهب الى مكة ، ورأى الدعــوة الوهابية التى تعود بالناس الى البساطة الدينية ، والى جوهر الدين الحقيقى ، حين رأى هذا أدرك ان هذا هو ما يحتاج اليــه الناس فى بلاده .

صحيح أن مذهب «الامام مالك» كان منتشرا بين الفولانيين، وان الطريقة « القادرية » كانت تجد لها اتباعا ، ولكن الوهابية فى نظره كانت شيئا جديدا ، يحمل الانسان على أن يلامس أعماق الدين ، وأعماق نفسه ، وأعماق الحياة .

من هنا نراه يندفع بتعاليمها بين الناس .

ونرى الناس يسارعون بالانضمام اليه ، كلما اندفع بهم الى جوهر الأشياء ، كلما طرح عن الدين قشوره ، وطرح عنهم فى الوقت نفسه زيف الحياة ، والتفاهات الصغيرة التى تأكل طموحهم ، وتقيدهم عن الاندفاع فى الحياة .

وفى ضوء هذا وضع خطة جديدة تتلخص فى « تحضير الشعب للثورة » ثم فى التوجه الى الامراء باعتبارهم « الشكل الرسمى » للامارات ، ثم الدخول معهم فى صراع ، ثم النفاذ من كل هذا الى اعلان الجهاد باسم الاسلام فى المنطقة .

ومع انه قوبل بالرفض ، واضطر الى ما يسمونه هناك « بالهجرة » ، ورأى أمراء « الحوصة » يتعاونون مع «الطوارق» ومع مملكة « برنو » للوقوف امامه .. الا انه كان يملك الى جانب القوى الخارجية التى كا يناوش بها الامراء ، قوة أخرى يمكن تسميتها « قوة التقويض من الداخل » .

ذلك لان عددا وفيرا من الفولانيين كانوا موجودين بين الامارات ، وكانوا يشكلون جانبا كبيرا من ملامحها .

وقد انتقل من فترة كفاح الى فترة كفاح أخرى ، حتى وضع بصماته القوية على ما يشكل الآن نيجيريا الشمالية ، وبعض الجوانب الأخرى .

وفى كل تحركاته كان يقدم « كلمة الله » ، ويذكر أنه يتحرك باسمها ، ومن اجل التقدم الانسانى بوساطتها .

ثم كان اعتكافه للتعبد والتأليف مما جعله يزهد فى الحكم ، ويقسم البلاد بين ابنه « محمد بللو » وشقيقه « عبد الله بن فوديو » .

ولكن من جاءوا بعدذلك انغمسوا فى الترف ، وانصرفوا عن « الجهاد » ، كما زهدوا فى عملية التوتر التى تقوم على حفظ الدولة وحراسة حدودها وخنق شعور بالمحافظة عليها ، بل والعمل على دفع حدودها الى الخارج .

وقد مهد كل هذا للخروج على سلطتهم ، والى تفكك الوحدة التى تجمع البلاد ، مما جعل الدولة مفككة تماما .

ثم كان القرن التاسع عشر .

وكان الظلام .

وكان قدوم الانجليز .

.. وانتهاء دولة كبرت باسم الاسلام ، وضمرت وانتهت تماما بالانصراف عنه .

اليوروبا

يذكر المؤرخون أن « اليوربيين » من الكنعانيين ، ويذكرون انهم قدموا الى نيجيريا الحالية من الجزيرة العربية .

واليوربيون أنفسهم يذكرون فيما يذكرون أنهم قدموا من مكة ، ومن صعيد مصر ، وقد يعممون فيذكرون أنهم قدموا من الشرق .

على أن ما يرتاح اليه كثير من المؤرخين أنهم قدموا من احدى المناطق التى كانت متأثرة حضاريا بمصر القديمة ، ويدل على هذا أنهم يشبهون فى طرق الدفن تلك الطرق التى كان يتبعها قدماء المصريين ، وأن الوطنيين كانوا يعبدون فى أول الامر ملوكهم كما كانوا يعبدون الشمس ، كما يذهبون الى القول بأن الارواح باقية ، وانها بعد أن ((تغيب)) عن الحياة تعود الى الشمس ((لتسطع)) من جديد .

ولعل ما يؤكل هذا أيضا أن الملك كان يلبس « قناع كبشى » ، وأن السكان كانوا يستخدمون البرونز ، والنحاس ، والحديد نفس الاستخدام ، وبنفس المهارة التى كانت معروفة عند السكان على امتداد النيل .

وقد حدد البعض « منطقة التأثير » هذه بمنطقة « كوش » التى كانت تقع جنوب مصر ، وأن فجر الرحلة قد بدأ عن هذه المنطقة فيما بين عامى ٦٠٠ ، ١٠٠٠ بعد الميلاد .

ولعل مما ساعد على هذا سقوط الدولة «المروية» بالسودان على أن ما يلتقى عنده المؤرخون هو أنهم لم يكونوا من أصـــل زنجى ، وأن ما حدث من التلقيح بعد ذلك كان من أثر المخالطـة والاندماج فى الزنوج بعد عملية التحرك التى بدأت من النيل .

وقد استمر هؤلاء فى سيرهم حتى وصلوا الى مدينــة ياربا yorpa بمعنى أن رحلتهم كانت من نهـــر الى نهـــر ، أو بمعنى آخر من النيل الى النيجــر . ومعهـــم فى كل ذلك تأثرات من « آمون » ، ومن تقاليد الناس فى هذه المنطقة .

والرأى معقود على أن هؤلاء « اليوربيين » قد عاشوا حيـــاة خصبة فى هذه المنطقة التى يمكن تحديدها حديثـا الآن بما بين مصب النيجر شرقا ، وبين داهومى غربا .

ولكن هذا البريق الذى حملوه من الحضارة المصرية القديمة، ما لبث أن خفت ، وأصبحت الحياة من حولهم جافة وقاسية ، وغير جديرة بأن تعاش ، ذلك لأن الناس كانوا فى حاجة الى نوع من « الرحابة النفسية » ، والى تفتيح نوافذ جديدة فى حياتهم حتى تكون الحياة جديرة بالمعاناة .

وقد تحقق هذا فى واحد من دعاة « الحوصة » فى القـــرن الحادى عشر ، فقد أراد اكتشاف هذا العالم الغريب فى الجنوب، وأراد أن يحدث ولو ثقبا صغيرا يمكن أن يتسرب منه الأسلام .

وكان أن ساقته قدماه الى مدينة « ايف » الوثنية ، وفى قلب هذه المدينة القاسية كان يرتفع صوته بآيات من القرآن الكريم ،

« هلم نعبد الله الذى خلق الجبال والوهاد وخلق كل شىء وخلقنا » .

ولكن كل هذه النوايا الطيبـــة قد ذهبت بددا ، لأنه كان يتكلم بالعربية وبالحوصية ، وهكذا وقفت « اللغة » دون حماسه

للاسلام الى أن عثر عليه ميتا فى أحد منازل مدينة « ايف » ، ومن فوقه نسخة من القرآن الكريم .

على أن الامر لم يقف عند هذا ، لأن كثيرا من الحوصـيين والفلانيين قد طرقوا البلاد كتجار ودعاة ، مما دعا الملك الوثنى « أفونجا » الى الاعجاب بسلوكهم ، والى اعلان الرغبة فى ارسال فقيه من الشمال ليطلعه الى الاسلام .

وقد كان هذا بدء السباق لتغلغل القوى المسلمة فى البـلاد ، مما جعـل الملك ينظمهم فى سلك الجيش ، ويدفـع بهم كغـزاة الى أعدائه .

ولكن الملك « أفونجا » ما لبث أن ارتجف من امتداد نفوذهم، ومن اقتداء الناس بهم ، وبخاصة فى مدينـة « أيلورين » مما جعله يعمل على تدبير الوقيعة بهم ، وعلى اخراجهم من البلاد .

ولكنهم لم يكونوا غافلين عما يدبره الملك ، ومن هنا أسرعوا الى التخلص منه ، والى احكام قبضتهم على قوة الجيش ، والى مطالبة الملك الجديد بالاسلام ، ولكن الملك ومن حوله ممن كانوا يمثلون الطبقة العليا فى المجتمع ، عملوا على الاحتكاك بهم .. ثم كان لا بد من تصـفية الموقف الذى انتهى أخيرا بانتصـــار هذه القوى الجديدة .

وفى ضوء هذا أسرعت هذه القوة الجديدة ــ التى كـــان الجيش أوضح ملامحها ــ الى الالتحام بالشعب ، والى حـــل المتناقضات فى هذا المجتمع ، والى الدعوة الى الاسلام فى ارجاء الدولة الى حد انه يمكن القول : بأنهم كانوا يمثلون فى القـــرن الثامن عشر قوة جديدة استطاعت من حدودها ، ثم تثبيت هذه الحدود بذكاء عند « داهومى » غربا .

وقد ساعد على هذا تأييد مسلمى « مالى » لهم ، ووصفهم أنفسهم فى خدمة الاسلام ، كما ساعد أيضا ذلك التقليد المتوارث

الذى كان لا يقبل من القائد الا ((**النصر**)) .. فاذا ما انهزم سحب الشعب منه ولاءه وحبه ، مما يضطر القائد معه الى التوارى عن انظارهم فى « اويو » أو الانتحار .

ولكن هذا التقليد جر على الدولة بعد ذلك خطرا كبيرا ، لأن « القائد المنتصر » كان يعمل على تثبيت نفسه على « ولاية » ، ولأن « القائد المهزوم » كان يعمل من جديد على فرض نفسه على بعض الجماعات الصغيرة حتى تتاح له فرصة الانتصار مرة أخرى .. مما أصبح كلاهما يمثل خطرا على « الملك » .. الذى كان يجب أن يكون الولاء له !.

واقد ترتب على هذا أن القرن التاسع عشر قد رأى هؤلاء المنتصرين والمهزومين معا يشهرون عداءهم للملك ، ويطالبون بعدم الاقتراب من مناطق نفوذهم ، ويمتنعون عن تقديم « الخدمات » للملك كما أن بعضهم قد سحب ولاءه من الملك ، ودفع به دفعا الى أمراء « الفلانى » فى الشمال .

وفى ضوء هذه الخلافات يمكن القول بأن الصراع الداخلى أخفى عن أعين المواطنين حقيقة الصراع الخارجى الذى كانت تقوم به الدول الاجنبية فى الثغور ، مما جعل الملك يبرم مع الانجليز معاهدة بحجة حفظ البلاد من الفرنسيين ، ومن الخارجين عليه .

وحين تنبه الملك الى ثقل هذه المعاهدة واراد ان يتحرك لم يستطع .. وهكذا جاء عام ١٨٩٥ ليشهد تسلط الانجليز التام على كافة امارات « اليوربيين » .

وفى القرن العشرين كان المسلمون يعتصمون «بالمدن المسورة» ويمثلون طبقة من التجار والزراع .

وبمعنى آخر كان الاسلام يقف عند حدود المنطقة الاستوائية ، المنطقة شبه الاستوائية .

ولكن حين عبدت بعض الطرق ، وقطعت بعض الاشجار الموقة ، واختفت كذلك بعض الامراض المستوطنة .. رأينا هؤلاء المسلمين اليوربيين يخرجون الى الناس فى قراهم ، وعلى مشارف غاباتهم ، ويكونون معهم علاقات جديدة باسم الاسلام ، وباسم الطريقة التجانية .

على أن هؤلاء الدعاة المسلمين ، سرعان ما اصطدموا بالمبشرين المسيحيين حول قلوب هؤلاء الذين كانوا عاكفين على وثنيتهم .

وبالرغم من هذا فقد كان الاسلام يتفوق على المسيحية فى هذه المنطقة مما جعل المسيحيين أنفسهم يؤكدون هذا فى تقاريرهم ، ويذهبون الى أن الاسلام « **دين افريقى** » والى أن الميدان سيخلو له فى نهاية الأمر .

واليوم ونيجيريا الموحدة تأخذ مكانها تحت شمس الحرية ، نلمح فى قسماتها نقاء الاسلام ، وثوريته ، وقيمه الصالحة لكل زمان ومكان .

البمبارا

لقد كان « البمباريون » يمثلون أحد ملامح المنطقة الاستوائية ، ومنطقة الأعشاب الصغيرة ، التى كان الاسلام القادم من الشمال يتكسر على حدودها بسبب المقاومة العنيدة منهم ، ومن جماعات «الموسى » لفترة طالت الى خمسة قرون تقريبا ٠

ومن هنا كان قيام عدة امارات فى الغرب تتمثل فى « فوتاجولون » وفى « كآرتا » و « سيجو » و« سينا »

وانه من هذه النقاط كان يرتكز التحدى لتقدم الاسلام ، وان كان هناك اجماع على أن هذه الامارات كانت متأثرة حضاريا بالدول الاسلامية التى تقرب منها ، وبخاصة « مالى » ولكنهم ظلوا لفترة كبيرة بعيدين عن الاسلام ٠

وقد اشتد نفوذ هؤلاء « البمباريين » الذين كانوا يتميزون بقوة النظام الاجتماعى الدينى ، والذين كانوا يمثلون قسمة من قسمات شعب « الماندى » ، وبخاصة حينما تخلصوا من التبعية لدولة مالى ، ومن سطوة الباشوات المراكشيين فى « تمبكتو »الى حد أنهم أخذوا يرفعون الحدود « بينهم وبين جيرانهم ، ثم ينقلونها الى ابعاد أخرى مجاورة فى القرن الثامن عشر ، بل لقد وصل بهم الأمر الى حد أنهم حملوا سكان « تمبكتو » على أداء الجزية لهم .

وفى أثناء هذا كله كان « الفلانيون » يتداحون فى هـذه الجماعات الكبيرة ، ويتكلمون بلغاتها ، مع محافظة على تجمعاتهم الى ان ظهر بينهم الداعية الاسلامى الكبير « أحمد ولوبو »

وأحمد ولوبو .. ولد فى هذه الجماعة الفلانية ، وساقته قدماه وحبه للعلم الى مدينة « جنى » التى كانت تمثل المنارة الثانية للثقافة الاسلامية فى غرب القارة الافريقية بعد «تمبكتو».

ثم كان تأثره بالدعوة التى قام بها «عثمان بن فورديو » الى حد أنه انغمس فيها ، واشترك فى الحرب باسمها حين كانت ولايات « الحوصة » تنهار تحت التقدم الاسلامى الواحدة بعد الأخرى

على أنه حين عاد الى قومه بالقرآن على شفتيه ، وبالدعوة الصادقة الى الاسلام ، وجد الناس يلتفون حوله فى حماس ، مما أزعج معه الحكام الفلانيين ، وكان أن وقفوا ضده ، بل واستعانوا عليه وعلى أنصاره بالحكام البمباريين .

وقد رأى أن يأخذ خطا مخالفا لخط « عثمان بن فوديو » بعد عودته ، ذلك لأنه وجد الظلام مستحكما ، وقد اعتقد أن هذا الظلام لن يثقب الا « **بادهاش** » هذا الشعب ، وجعله يقف فى مواجهة قوة من القوات الخارقة .

ولم يكن أمامه الا دعوة « المهدية » التى كانت تمثل « الثورة المقنعة » ، والتى كانت تريد الوصول الى مكاسب سريعة وحاسمة ، والتى كانت فى الوقت نفسه تستهوى الناس فى هذه الفترة .. بل وفى كل فترة تغيم فيها الرؤية الحقيقية بالنسبة للمسلمين .

ومن هنا نراه يعكف على احاديثها ، ويجمع كل مادار حولها .. وكان أن أعلن أنه من سلالة النبى عليه السلام ، ثم أطلق «بشارات» تهىء الناس الى ظهور المهدى ، وذلك بذكر صفاته ، وشروط قدومه .

وكان أن تكونت له عدة ملامح عند الناس كانت ـ فى الوقت نفسه ـ تنطبق عليه .

ثم نرى دعوة نشيطة تقول ان « اسكى محمد » قابل الامام السيوطى ، وتحدث اليه فى هذا الشأن ، فاذا بالامام السيوطى يذكر الملامح النفسية والجسمية التى تتفق مع ما يعرف عن « أحمد ولوبو »

وقد جاء فى هذه الشهادة أنه سيكون كالجمرة التى توضع على الحشيش اليابس .

« ..فمن رآه واتبعه كمن يتبع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن خالفه فكأنما خالف النبى صلى الله عليه وسلم »

.. ثم كان جهره بالامامة، وبأنه الامام الثانى عشر، وان الامامة تقتضى منه الكتابة الى جميع المسلمين فى هذا الشأن ، ثم توج هذا كله باعلانه « الجهاد » فى عام ١٨١٣ على البمباريين الوثنيين .

وكانت فرصة لظهور الفلانيين كقوة وسط البمباريين ، كما ظهر اخوانهم فى الشمال النيجيرى ، وقد ازداد حماسهم الى حد انهم دحروا المراكشيين فى « تمبكتو » ثم كان الدخول الى مدينة «جنى» التى تلقى فيها « أحمدو لوبو » العلم .

وقد احس الامام « أحمد ولوبو » انه مرتبط بهذه المدينة ، وكان أن شيد عاصمته بالقرب منها وهى التى أطلق عليها اسم « حمد الله »

ثم سمح للطريقة القادرية أن تعمل فى ظلاله لادخال الناس فى الاسلام .

ومع أنه توفى عام ١٨٤٤ الا أنه استطاع ان يحرك فى يده ثلاث امارات كانت تمثل الوثنية من قبل وهى كآرتا ، وسيجو ، وسينا

ومع أن الحكم ظل فى اسرته فترة من الزمن ، الا أن هذه الوحدة سرعان ما تفككت ، وبخاصة حين قام وعى قوى فى « فوتاجالون »

ولكن ما يحفظ له أنه استطاع أن ينقل رقعة الاسلام الى منطقة الغابات الكثيفة المغلقة ، والى المدن الساحلية التى يتشبع جوها بالبرودة .. وبكل هذا كسب الاسلام منطقة نفوذ جديدة فى افريقية .

التوكولور

يعتبر « التوكولوريون » امتدادا لهؤلاء المرابطين الذين نذروا أنفسهم للدفاع عن المناطق الضعيفة فى البلاد الاسلاميـة ولنشر العقيدة الاسلامية فى الوقت نفسه ، ثم أخيرا « رد الفعل » للتقدم الاوربى فى البلاد التى كانت « المسيحية » قسمة من قسماتهـا العديدة .

ذلك لأن الأنوار كانت تنطفىء فى أكثر الدول الاسلامية ، وكان المسلمون يتلفتون حولهم فلا يجدون القوة المادية التى يمكن بها أن يتحركوا وسط القبائل الوثنية ، وفى مواجهة التسلل الأوربى الذى كان يطرق البلاد بوساطة الطرق المائية التى تلفها .

وفى ضوء هذا ، وفى أوائل القرن التاسع عشر ، لم يكن أحد يتكلم باسم الاسلام الرسمى فى أفريقية غير الطرق الصوفية ، ولقد كان فى مقدمة هذه الطرق القادرية » التى كان العراق مولدهـا فى القرن الحادى عشر الميلادى ، وكذلك الطريقة « التجانية » التى نشأت فى الشمال الأفريقى فى القرن الثامن عشر .

ولقد وقفت كل هذه الطرق عند المظاهر الخارجية للاسلام ، بل لقد تحولت فى نهاية الأمر الى نوع من «الذكر» ، وادعاء الخوارق ، والمنافسة بين بعضها بعضا ، واتخاذ نوع من الشعارات كالسبح الطويلة ، والهتافات التى يراعى أن تكون مخالفة للطرق الأخرى .

.. وقد ظل هذا الصراع مستمرا الى ان ظهر « **الحاج عمر بن ادريس** » من البيت الحاكم فى « فوتا » ، وألقى بثقله فى المعركة ،

ولقد هيأته الظروف الى أن يقوم بهذه الرسالة ، فقد كان أبواه من المرابطين ، ثم كان عليه أن يخرج من بلاده ثم يصل الى مصر عام ١٨٢٠ ·

وفى مصر يتردد على الأزهر ، ويستمع الى شيوخه ، ثم يواصل الرحلة الى مكة ·

وفى مكة لايحبس نفسه فى مكان ، وانما نراه يطوف هنا وهناك ويلمس بنفسه « الغليان الدينى » الذى كانت تقوم به الوهابية .

وفى مكة يتأمل حال الاسلام فى بلاده ، ويتحدث فى هذا الشأن مع العلماء .. وفى لحظة من لحظات وضـــوح الرؤية يرى أنه لا يستطيع تحريك الاسلام فى بلاده الا فى اطـــار قوة من اقوى الصوفية هناك .

وفى هذا الوقت نراه يتعرف على أحد دعاة « القادرية » فى مكة ، وحين يلمس منه هذا ، يبايعه كمسئول عن الطريقة فى « غـرب السودان » وحين يعود الى بلاده ينسلك فترة فى أصدار دعـوة « عثمان بن فوديو » ولكنه حين يرى التهاويل التى تنشرها الطرق الصوفية ، يصمم على أن يضعها فى اطار جديد ومحدد .

ومن هنا نراه يؤسس « رباطا » فى « فوتاجالون » بحيث لم يمض وقت طويل حتى كانت تتردد فيه نبضات العبادة ، وأصوات التجارة ، بالاضافة الى صوت آخر هو صوت الأسلحة التى كانت تشترى من الأوربيين ·

وحين استوثق من نفسه نزل يحدث الناس باتباعه ، وذكر ان عليهم واجب نشر الدعوة فى القبائل الوثنية ·

وحين لايلقى اصداء حقيقية لصوته ، يسارع مع « مريديه » بالذهاب الى مكان محصن ·

وفى « دنكراى » يقيم حصينة ، ثم من هذه القلعة يعلن الجهاد على الوثنية ، وعلى التواكل ، وعلى كافة البدع التى كانت تحكم حياة الناس هناك ٠

وفى فترة قصيرة نراه يتحرك بسرعة فى عدة اتجاهات فى عدة مناطق ، مما استقر الأمر على تسميتها الآن باسم غينيا ، وجابون ، وشمال النيجر ، ووسطة ، وبما اصطلح على تسميته بامبراطورية « التوكولور » التى كانت تغطى تلك المناطق الشاسعة من « فوتا » الى « تمبكتو »

وعلى كل فقد كان فى مخططه فتح مايسمى الآن بالسنغال ، لولا انه اصطدم بالجيش الفرنسى بقيادة الجنرال « فيدرب »

ولقد كان يمكن لهذه القوة أن تعرقل التقدم الفرنسى فى غرب القارة ، ولكن بعض الامارات عملت على التخلص من حكمه ٠

ثم كانت عملية الصراع الخفية التى لاتهدأ بين ممثلى الطريقة القادرية ، والتى كان يمثلها « البيل » ، فقد نقموا على « الحاج عمر ابن ادريس » انتصاراته ، ولم ينسوا له انه شل نفوذ طريقتهم بما انتشر بين الناس من أنها طريقة سلبية لاتتحمل أعباء الجهاد ، وأن المشرفين عليها جهلة ومتجمدون ، ولا يفهمون الدين الا انه اذكار وأدعية .

ولقد استمر هذا الصراع قويا بحيث تفتت من أثره هذه الامبراطورية الكبيرة ٠

وبحيث راح ضحيتها فى الوقت نفسه « الحاج عمر بن ادريس » فقد ناوشته « البيل » ، ثم الجأوه الى مغارة من المغارات ، وحين استقر فيها أشعلوا نارا فى مدخلها ، واستمر اشعال النار حتى مات هذا المجاهد داخلها مختنقا ٠

فاذا أضفنا الى ذلك أن أولاده الذين كانوا يحكمون الولايات كانوا منقسمين على أنفسهم ، وكانوا مشغولين عن المحكومين بالصراع بين بعضهم بعضا ٠٠ اذا أضفنا ذلك وعرفنا أن فرنسا أخذت تتقدم خطوات جدية الى البلاد فى عام ١٨٩١ ، وأن « أحمد بن الحاج عمر » كان قد أخذ يتصدى لهم بغير رصيد من التفاف الشعب حوله ، وبعدة قطاعات متفرقة ٠

اذا عرفنا ذلك أدركنا أن هذه الامبراطورية الكبيرة قد أصبحت تماما فى حوزة فرنسا عام ١٨٩٨

الا أن مايذكر لهذه الامبراطورية أنها نشرت الاسلام فى مناطق جديدة فى الغرب الافريقى ٠

وانها لم تسلم البلاد لفرنسا الا وهى مغموسة بالدم

ثم أخيرا أنها كانت الوجه المسلح الحقيقى لاحدى الطرق الصوفية وهى الطريقة « القادرية »

الثمن قرشان

مطابع شركة الاعلانات الشرقية